

محمد سعيد رمضان البوطي

مِنْ رَوَائِعِ قِصَصِ الشُّعُوبِ

سِيَامُنَا

ابْنُ الْأَعْرَابِ

دار الفارابي
للمعارف

سَيِّدُ الْمَنَدِ
إِبْنُ الْأَدْعَالِ

العنوان : سيامند (ابن الأدغال)

التأليف : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

عدد الصفحات : ٢١٦

القياس : ٢٠ × ١٤

الطبعة الثالثة

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل الطرق
الطبع و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل
المرئي و المسموع و الحاسوب و غيرها من
الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.



أسست عام ١٩٦٧ م

سورية، دمشق، حلبوني، شارع مسلم البارودي.

ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦ فاكس: ٢٤٥٤٩٧٨

www.daralfarabi.com

الوكيل المعتمد في
الإمارات العربية المتحدة
مكتبة دار الفارابي
الشارقة - دوار الساعة
هاتف ٥٦٣١١٣٠ - ٦ - ٠٠٩٧١
darfarab@emirates.net.ae

سِيَامُنَا

إِبْنُ الْأَدْغَالِ

مِنْ رَوَائِعِ قِصَصِ الشُّعُوبِ

بِقَلَمِ

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

دار الفارابي

للعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

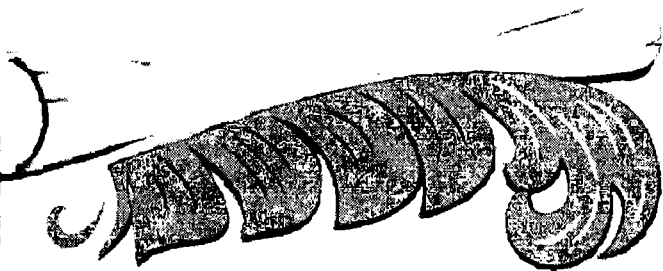
الحمد لله ولي كل نعمه

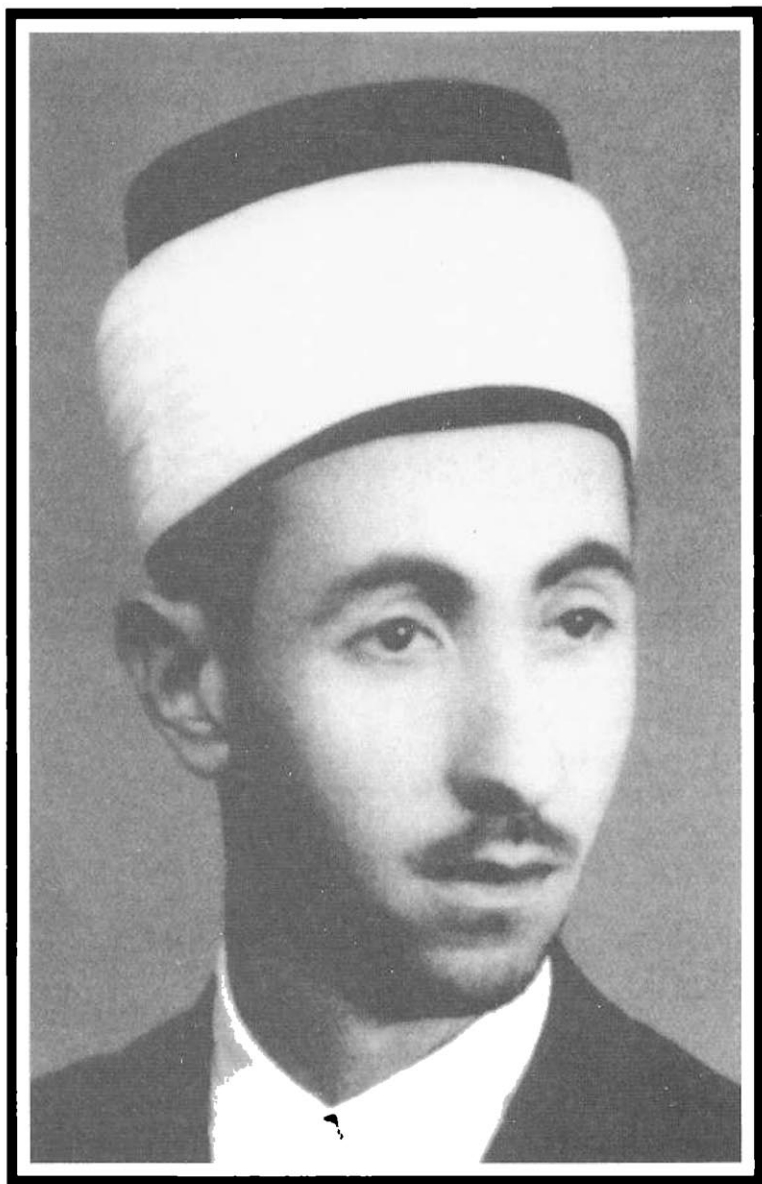
ملهم الخير والسداد

والصلاة والسلام على

سیدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين





صورة المؤلف في الفترة التي كتب فيها هذه القصة

بيني وبين هذا الشاب الذي تراه

ناداني، من وراء سور زمني، يبلغ مداه أربعين عاماً، يقول :
أي سرعة تلك التي بررت لك أن تعاملني بهذه الأنانية المفرطة؟..
تنشر معارفك ومؤلفاتك المتنوعة، وتدعها تسير بين البلدان مشرقة
ومغربّة، ثم تعمد إلى زهرة أودعتها عبق شبابي : أدباً وبياناً،
وتصويراً للمأساة إنسانية ذهل عنها الناس في غمار لهوهم وأفراحهم،
ورسماً لأحلام وأمنيّ تغمس مشاعري بألوان الطيف وتنسيني بؤس
الليالي والأيام - تعمد إلى زهرتي هذه، فتدسّها في غياهب الأدرج،
وتخفيها في طيّ الأوراق المنسية !! .. ما الذي فضل أعمالك العلمية
والفكرية حتى ترعى انتشارها بين الناس، وما الذي عاب زهرتي
الأدبية التي أودعتها أغلى أحاسيسي الإنسانية، حتى تغبر حياتك
كلها سجاناً لها، تنتظر بها التلف والهلاك؟

أجبتّه : أنت شاب وهبت فكرك وقلمك للأدب وأحلامه، وأنا
منصرف إلى ما ترى من مشكلات الثقافة والعلوم، وصراع ما بين
الحق والباطل، أدمع الحق وسلطانه، وأعري الباطل من كسوته
العلمية والثقافية الزائفة.. فلا أنت يطيب لك الصراع الذي أثقل في
غماره، ولا أنا أملك فضلاً من الوقت للركون إلى متعة الأدب وأهله
والتقلب في أحلامه الذهبية.

فنظر إلي قائلاً: اليوم، وبعد أن نهلت من أدبي وبياني ما طاب لك أن تنهل، ثم اتخذت منهما الطلاء الذي رحت تصقل به أحاديثك ومؤلفاتك التي تخاطب بها الناس، ليكسبها الرواء الممتع والألق الجاذب، في آذانهم ونفوسهم.. اليوم.. وبعد هذا كله أصبحت تُشيع بوجهك عني وتتسامى بعلموك وأفكارك عن بضاعتي وبياني! .. نسيتني وتنكرت لي لأنني أديب وأنت عالم؟ ولأنني أصور آمال الناس وآلامهم، وأنت تعالج دينهم ومعارفهم؟! ..

هل كان في الناس من يحفل بشيء من أحاديثك ومؤلفاتك، لو لم تجذبهم إليها إشراقة الروح الأدبية وحرارة العاطفة الإنسانية، اللتين لم تنهلها إلا من معيني، ولم يَصِفْ لك وردهما إلا في ظل أحلامي الوردية، بما فيها من شوك ورحيق؟ أهكذا يكون الجزاء؟ .. أكسبتك الثوب الأدبي الذي كسوت به علومك ومؤلفاتك، فأوليتها بذلك سرّ القبول وجاذبية الانتشار، وجئت بعد ذلك فكافأتني بحبس إنتاجي الوحيد بعد (موزين) بين أوراقك المنسية داخل أدراجك! ..

قلت له: لقد ذكرتني بموزين. أولاً تكفي هذه الملحمة التي نشرتها لك، والتي ما زالت طبعاتها تتوالى، وحديثها يُروى في كل مكان؟ قال: كانت تلك مأساة حب رومانسي عاصف.. أما هذه فهي دراما إنسانية مثيرة ونادرة. وما ينبغي أن تنسخ هذه بتلك ولا العكس.

قلت : فحدثني عن هذه الدراما الإنسانية التي تلحّ عليّ أن أطلق أسرها اليوم. وقل لي ما الذي حملك على كتابتها وإخراجها.

قال : مموزين هي القصة التي كان يرويها لي أبي ، ويصّرني بما فيها من معارج الصعود التدريجي من حب الأشباح الأرضية الفانية إلى محبة الله الحي القيوم الذي لا يستأهل الحب الحقيقي سواه.

أما قصة سيامند هذه فهي تلك التي كانت ترويها أمي في ليالي الصيف القمرية.. كانت فيما يبدو تسليني وأختي الصغرى بذلك ، كي نهذاً ونقلع عن الضجيج الذي يوجع رأسها. ولكنها كانت في الحقيقة تؤنس نفسها بتلك الرواية التي تذكرها بمسقط رأسها في جزيرة بوطان ، وتنسيها غربتها التي أبعدها عن الأهل والوطن ، في غمار الأخيلة التي تعود بها إلى تلك الربوع الأخاذة بمجالها الشاهقة الخضراء وسفوحها المنقوشة بأزاهير النرجس والبنفسج ، وأوديتها التي تعج بخير المياه وتصّاعد منها أصدااء غناء العنادل والبلابل.. وكانت إذا انتهت إلى الفصل أو المقطع الأخير منها ، حيث الحوار الرقيق.. حوار الوداع بين سينم وسيامند ، أخذت تتغنّى بألفاظ هذا الحوار ، باللحن ذاته الذي تتناقله أصوات المغنين والمغنيات في تلك المناطق من بلاد الأكراد ، وما هو إلا أن يسلمها هذا الحوار الغنائي الأخاذ ، إلى بكاء يجعلنا نحن الصغيرين نبكي لبكائها.

هي قصة طفل نشأ في أحضان البؤس ، وشب تحت جناح الأسى
يتقلب في أحلك ألوانه ، ورضع لبان الظلم أشدّ ما يكون مرارة
وقسوة.. حتى استوحش من دنيا الناس وأخذ يركن إلى أدغال
الوحوش ويأنس في أوكارها! .. فماذا كان من خبره بعد ذلك؟ وكم
هي الأيدي التي أخذته وردّته؟ وأين وجد أخيراً مستقره وسلواه؟ وما
هي العبرة التي بوسع القارئ لهذه القصة أن يعود مستغنياً بها؟
هذا ما سيعلمه القارئ ويتبينه لدى قراءته لها.

حملتني على كتابتها الرغبة العارمة في تخليد تلك الليالي المقمرة
التي كنا نجلس فيها إلى أمي لتقص علينا أحداث هذه القصة الغريبة
والمثيرة. ثم إنني وقد أمتعني الله بحمل هذه القيثارة ، قيثاره الأدب العربي
الساحر ، يطيب لي أن أعزف عليها الألحان التي تترجم مشاعر العشاق
والبؤساء ، تروي للناس أشجانهم وتقصّ حوار الليالي معهم وعزاء
الطبيعة لهم. وهل تُتوّج الإنسانية بتاج أجلّ وأبهى من اللحن الذي ينبش
عن خفايا مشاعرنا ويترجم للناس مكنون آلامها ورائع آمالها؟



والآن ، يا قارئ الكريم ، وقد أصغيت إلى الحوار الذي جرى
بيني (وبين) هذا الشاب الذي ترى صورته ترنو إليك ، لا يسعني إلا

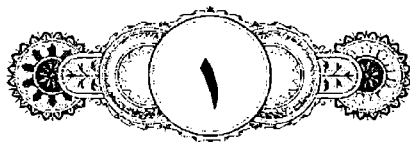
أن أخضع لشديد تقريره وعتابه ، وأن أصلح ما بيني وبينه فأستجيب
لرغبته في إحياء ليااليه المقمرة مع أمه التي ورث منها الكثير من مشاعره
العاطفية وأحاسيسه الوجدانية.

فها أنا ذا أستأذن السادة القراء أن أخرج مخطوطة هذه القصة من
أوراقى المتقدمة المهملة ، وأن أبعثها من الرميم ، وأنشرها بين الناس
واحدة من روائع قصص الشعوب الواقعية لتؤدي هي الأخرى
رسالتها في عالم القيم الإنسانية وساحة الفكر والنقد.

محمد سعيد رمضان البوطي

٢٧ جمادى الأولى ١٤١٨

٢٩ أيلول ١٩٩٧



لم يكن قد حان بعد وقت الراحة ، حينما ألقى الحاج حامد المحراث من يده وجلس في مكانه يلهث ، بل ، لم تكن الشمس قد ارتفعت حتى إلى حدود الضحى من النهار؛ غير أن ضربة الشمس التي أصابته قبل ذلك بيوم لم تدعه يستطيع المثابرة على العمل أكثر من هذه الفترة القصيرة. لقد شعر بركبتيه تتخاذلان عن حمله ، وأحسّ بكابوس الإعياء يتهدى ثقيلًا فوق كل جسده؛ فأعرض عن الحرث والمحراث وتمدّد حيث هو ، ينشد نسمة راحة ينتعش بها.

وذكره ألم الإعياء بما كان العمل قد أنساه إياه ، فقد ترك ابنه الصغير «سيامند» بعيداً تحت شجرة جوز يعثو بما حوله ، ثم تلهّى عنه ولم يدر ما شأنه.

ومع تذكره لابنه ذاك ، نسي أو تناسى الإعياء الجاثم فوق جسمه ، وانطلق يعدو نحو شجرة الجوز...

لقد كان من الممكن أن لا يتجشم الحاج حامد مشقة حمل ابنه

معه إلى الحقل - خصوصاً وهو صغير لا يتجاوز العام الرابع - وأن يتركه في البيت ، لو أنه اطمأن ووثق بأن ابنه سيلقى العناية اللازمة هناك. غير أنه لا يطمئن ولا يثق.. فإن تلك التي تركها في البيت إنما هي زوجته وليست أم ابنه. أما أمُّه فقد ماتت منذ سنتين.

وقد لاحظ الحاج حامد منذ أن أتى بهذه الجديدة إلى بيته أنها لا تُعنى بشيء غير زخرفها وزينتها - إذ هي جميلة من غير شك - مع أنه كان يأمل أن تكون أكثر عناية بوليد الوحيد الذي لم يدرج عن حدّ الفطام. وإذ قد خاب ظن الحاج حامد بما أمّله في امرأته الجديدة، فليس أمامه - وهو يهوى وحيده الهوى الشديد - إلا أن يُعنى هو به ويضعه تحت ملاحظته حتى عندما يكون منهماكماً بعمله في الحقل.

ولشد ما استخفه الفرح حينما وصل إلى شجرة الجوز ووجد صغيره جالساً تحتها منهماكماً في تفتيت الأوراق المتناثرة حوله من أعلى الشجرة، وسرعان ما جلس إليه وراح يداعبه في متعة وسعادة؛ ولم يأل جهداً في أن يناغيه حيناً بأسلوب أمه التي ماتت، وحيناً آخر كأرحم ما يكون الأب الشفوق، وحيناً ثالثاً كما لو كان طفلاً مثله يشاركه متعة اللهو.

غير أن متعته تلك لم تستطع أن تلهيه طويلاً عن ألمه الذي أقعده عن مواصلة العمل، وعبثاً فكر أن يجد في تلك المتعة ما ينفض عنه إعياءه

ويهبه نشاطاً يستعين به على تميم حراثة أرضه إلى مساء ذلك اليوم. بل لم يجد بداً من العودة إلى الدار حيث قد يجد أسباب الراحة فيها أوفر. وحينما قفل عائداً في طريقه إلى البيت كان يتحرى - وهو يركب حماره وصغيره سيامند في حجره - أن يتقي وهج الشمس ويحتمي بفيء الأشجار الكثيرة التي تملأ ما بين بيته والحقل ، وإن أطال ذلك مسافة الطريق.

ولما وصل إلى البيت كان وقت الظهر أوشك على الدخول ، وكان سيامند قد غرق في رقاد هانئ في حجر أبيه من طول ما اهتزت به الدابة في الطريق ، أما هو فقد كان الإعياء أخذ منه كل مأخذ. وفي ردهة البيت نزل حامد عن حماره وهو يحتضن ابنه ، وأفلت زمامه بين يديه وتركه يأخذ طريقه إلى الاصطبل ، وانطلق هو نحو أقرب حجرة إليه وهو يصيح متطلعاً في أطراف الدار :
- خديجة .. خديجة ..

ولكن خديجة لم تسمعه ، فقد كانت تجلس في حجرتها العليا منصرفة إلى إعداد معجون حنّاء لتصبغ به أطرافها. وعاد حامد يصيح : أين أنت يا خديجة .. خديجة وسمعت في هذه المرة صوت زوجها فأجابته وهي منهمكة في إعداد معجون الحنّاء :

- نعم.. ماذا تريد؟

- تعالي خذي هذا الطفل إلى سريرى، وأعدّي لى شيئاً من الحساء،

إننى متعب.

وترأخت وهى تجيبه : طيب.. طيب.

ثم تمت مع نفسها تقول : أوه.. ما هذا؟ فى كل يوم تزداد الأدلة على أن هذا الرجل إنما جاء بى خادمة له ولابنه لا زوجة له ، بل يبدو لى أنه لولا وجود ابنه هذا لاستغنى عنى غناء كاملاً!

وعادت إلى الانشغال بما بين يديها

وارتفع الصوت من تحت مرة ثالثة :

- يا خديجة.. قلت لك تعالي خذي الطفل ، إنه نائم فوق

الأرض ، أنا لا أستطيع حراكاً.. إننى متعب.. مريض..

ونزلت خديجة فى هذه المرة.. وحملت الطفل وهى تقول لزوجها :

- لقد كنت مشغولة يا حامد.. كنت أعد حنّاء لىدى.. أنت تعلم

أننى منذ حين لم أصبغ أطرافى بالحنّاء.

ووضعت الطفل فى سريرى ثم عادت إليه تقول :

- ولكنك لم تقل لى لماذا عدت اليوم من الحقل باكراً؟

- ذكرت لك أننى متعب.. أليس فى هذا ما يدلّ على سبب

عودتى باكراً؟

- صحيح ، لقد سمعت ذلك. بل إن شكلك الذاوي اليوم يدلّ على عدم ارتياحك. ولكن أأست تشعر بالحاجة إلى طعام أهيه لك ؟
- حساء يا سيدتي .. قلت لك وأنت في الأعلى مشغولة عني إنني أبغي شيئاً من الحساء.

ودهبّت خديجة تهيه لزوجها طعامه ، وقد ضايقتها لهجته ، بينما راحت تواصل حديثها مع نفسها :

- "..خذي الطفل .. هيهي لي الطعام .. آتيني بالحساء.." ثم هذه اليبوسة في لون الحديث. هل يكون شأن الخادمة إلا هكذا؟ متى أستطيع أن أفرغ لشأن نفسي إذا؟ ولكني لست أدري لماذا لم يفلح هذا العجوز ويحضر إلى بيته خادماً أو خادمة لتتلقّى تقريره وتلاحظ شأنه وشأن ابنه ، ولو لم يكن أغنى أهل هذه القرية لكان له في بخله هذا بعض العذر. ولكن لا ، إنّ عليّ أن أغتبط... إنه يوفر بهذا المال الذي سيؤول إليّ ، أجل إنه المال الذي سيصبح ملكي أنا إن عاجلاً أو.. أو أجلاً.

وحينما عادت إليه بالحساء كانت تتخيل أن رائحة أفكارها هذه تفوح منها أمام زوجها ، ولذلك حرصت على أن تغطي هذه الرائحة بحديث من المجاملة والنفاق.

قالت له في لهفة بادية وهي تضع طبق الطعام بين يديه :

- ولكنني لا أفهم سبباً لهذه الوعكة المفاجأة التي داهمتك يا حامد!

ووضعت يدها على ذراعه تتحسس حرارة جسمه ، ثم واصلت حديثها تقول :

- آه إن حرارة جسمك غير طبيعية اليوم.

فأجابها وهو منصرف إلى تذوق طعم الحساء :

- بل إنها ليست مفاجئة ، لقد شعرت بمقدماتها البارحة حينما اضطررت أن أتعرض للفتح الشمس ساعتين متواصلتين.. كان الحر شديداً.. وكانت قطعة الأرض التي علي أن أحرثها تلتهب تحت قرص الشمس.

- لي الويل.. لقد كان عليك أن تفضل صحة جسمك. ولا على الأرض أن تبقى بلقعاً في مكانها.. ماذا أصنع.. ؟ يجب أن نفكر في الحال بدواء يقطع عنك هذا الفتور قبل أن يستفحل.

وكان حامد وهو يسمع كلامها يشعر بنبرات النفاق واضحة في حديثها ، فلا جرم أنه كان يفهم من كلامها نقيض ما تؤكد أنه !.. لذا فإنه لم يجيبها على كلامها بأكثر من قوله :

- ليس المهم بالنسبة إلي أن أبحث عن دواء يشفيني ، فالموت لا بدّ منه وشيخوختي تؤذني بالرحيل؛ ولكن ما يشغل بالي هو طفلي الصغير.

قالها وأرخى جفنيه على دمعة حارة حبسها عن الانطلاق
فابتدرته قائلة وقد تجلى على شكلها علائم الامتعاض :

- أوه.. طفلك؟! ما أظن أيها المسكين إلا أن فتورك هذا ناتج من
هذا الاهتمام الشديد بطفلك. لست أدري ما الذي وجدته من دلائل
التهاون بشأنه حتى تذهب نفسك عليه حسرات ، أو ليس في الدنيا
طفل له أم ماتت؟

فأجابها في هدوء :

- وأي دليل على التهاون أنتظره بعد اضطراري إلى أخذه معي
إلى الحقل كل يوم لأجعل من نفسي - إلى جانب مشقة عملي - أمه
التي ماتت وأباه؟

- وماذا أصنع إذا كنت شاذاً في حبك لابنك إلى درجة أنك لا
تطبق فراقه حتى خلال ساعات عملك؟ وعلى كل فإن علي أن
أذكرك بأنك إنما أتيت بي زوجة ولم تعثر عليّ خادمة لابنك.

وقبل أن يجيبها الحاج حامد على هذا الكلام أطلق آهة طويلة من
صدره ، ثم اتكأ على وسادته ، كأنما يستنجد السكينة أن لا تفارقه ،
وقال لها في هدوء :

- لم أطالبك يوماً ما بخدمة لابني ، ولو أردتك على ذلك لما
قمت أنا بكل شأنه. إنني أقوم على أمره كله راضياً ، ولكن الذي

يشغل بالي هو الضيعة والغربة اللتان ستحيقان به بعد أن أمضي في سبيلي المقدّر. أما أنت فليس لي أن أعلق آمالاً عليك في هذا لأنني فعلاً إنما أخذتك زوجة لا خادمة لابني ، كما تقولين. وهذه هي الحقيقة التي تجعلني أجترّ التفكير المرير..

فقلت له وهي تباسطه لتسريّ عنه :

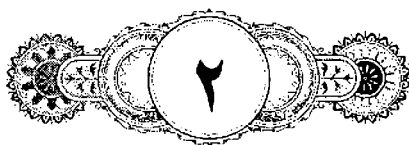
- كأن أملك يا رجل ليس كافياً حتى تزيد إليه الهواجس والأخيلة الوهمية؛ إنك بحاجة إلى راحة ، هل أستطيع أن أرجوك أن تريح جسمك وأعصابك قليلاً؟

وأغمض عينيه وهز رأسه وهو يقول : سأحاول.



وبعد قليل كان الحاج حامد يتقلب في فراشه ، وكانت خديجة تجلس في حجرتها العليا منهمكة في نقش أطرافها بالحناء.





لم يستطع الحاج حامد أن يذهب في اليوم الثاني إلى فلاحه أرضه ، فقد ازداد عليه الإعياء ، واستحال فتور جسمه إلى مرض أقعده في الفراش. وربما كان من الممكن أن ينشط من أثر وعكة الشمس التي كانت قد أصابته - فقد لاقى في زمانه مثلها كثيراً واعتاد جسمه على لسعات الحرّ والقرّ- لو لم تكن زوجته قد ضايقته بحديثها وما كشفت له من ذات نفسها في اليوم الفائت فقد تبدّى له منها أنها تنتظر نهايته ، كي تتقدم هي فتضع يدها على سائر أمواله و ثروته ، أما طفله الصغير فما له إلا أن ينتظر الشقاء والحرمان.

وحين أقبلت إليه زوجته في اليوم الثاني تسأله عن حاله وعمّا يشتهي من طعام ، كان هو غارقاً في التفكير بابه وبمن يمكن أن يجعله وصياً عليه بعد مماته...

وكانت أفكاره تجول وتكلّ ثم لا تنحط على شيء ، فليس له في القرية أخ ولا أخت ولا عم أو عمّة ، ليس له أي قريب ما عدا طفله

هذا، وحتى الأصدقاء كان حظ الحاج حامد منهم غير ذي جدوى؛ إذ كان هو أغنى أهل القرية على الإطلاق، فكانت نظرات أكثرهم إليه مشوبة بالحسد والحقد، خصوصاً بعد أن تزوج من الفتاة التي كانت حلماً في رأس كل شاب من شبان القرية.. إذ استطاع أن يبدد أحلامهم جميعاً بماله الذي أغراها به والذي وجد هوى أكثر من طبعي في نفسها هي، حتى تنازلت من أجله عن الشباب والجمال وعن كل ما تعتد به أي فتاة صغيرة مثلها ذات أنوثة عارمة. ولا ريب أن الحاج حامد كان يدرك كل هذا الذي يكمن بينه وبين قلوب أهل القرية؛ ولذلك فقد كان تفكيره في البحث عن وصي أمين على ابنه وأمواله لا يرسو عند أي شخص يطمئن إليه، وانتبه حامد من تفكيره هذا على صوت زوجته تسأله عن حاله وعما إذا كان يحتاج إلى شيء..

فنظر إليها ملياً... ثم سألها: أين سيامند؟

- سيامند؟ .. سيامند يلهو أمام باب البيت كأسعد ما يكون وليس

له شأن بك، أما أنت فابحث عن حالك وصحتك..

- آتيني به.. أريد أن أراه

- كما تشاء.. سأبحث لك عنه.

ثم خرجت من الغرفة وأغلقت وراءها الباب. لكنها ذهبت ولم تعد؛ ولا ريب أنها خرجت مغضبة.. كيف لا وهي تجد مكانها من

قلب زوجها ممتلئاً بحب ابنه سيامند. لقد كانت منذ استفاقت على شبابها وجمالها تنتظر أن تختال تيهاً حول الرجل الذي يفيض فؤاده بحبها وهواها وينتشي سكرًا بفتنتها وجمالها، ولكن هاهي اليوم تجد نفسها مسؤولة عن مداراة الرجل الذي يفيض قلبه حباً وهوى لابنه الصغير فقط؛ بل إنه ليخيل إليها أن الحاج حامد إنما اختارها زوجة له من بين بقية النساء ليوضح لابنه عندما يشب عن الطوق كيف أنه اختار زهرة الفتيات - بعد أمه - لخدمته ورعايته، فذلك من أهم واجبات الدلال على أب يعز عليه ابنه إلى درجة أنه يهواه الهوى المبرح بل وتنتابه الحمى في سبيله.

وطبيعي أن هذه الأفكار التي أغضبت خديجة ليست صحيحة إلى هذا الحد، إذ هي - ولا ريب - خيالات تسعرت بضرام غيرتها العارمة، أما حامد فهو فعلاً يحبّ وليده الوحيد الذي فقد أمه ولكن ليس إلى أبعد من الحد الطبيعي، ولقد كان من السهل عليه أن يبرهن على هذا الاعتدال في حبه لابنه لو أن زوجته أيضاً برهنت على عنايتها الطبيعية به. ولكن ماذا يصنع وقد اشتطت هي قبله في حبها لنفسها وسكرت عن كل ما حولها بفتنة عطفها؟

ولبت حامد ينتظر من غير جدوى.. حتى إذا طال به الانتظار، داخله القلق، ونهض من فراشه قاصداً ردهة المنزل ليبحث بنفسه عن

سيامند، فقد قالت له زوجته أنه يلهو هناك.

ولكنه لم يجد ابنه أمام باب المنزل، وإنما وجد هناك صبية صغاراً يلعبون؛ فسألهم حامد: هل رأوا ابنه سيامند على مقربة منهم. فأجابته أحدهم:

- لقد حملته جارتكم العمه حليلة منذ قليل وأخذته إلى بيتها. فاتجه حامد مسرعاً إلى باب دارها وطرقه ثم دخل.. وإذا هو يبصر سيامند جالساً في حجر العجوز العمه حليلة وهي تطعمه ثريد حليب في حنان وعطف!

فجثا الحاج حامد أمامها، وراح يشكرها بفيض من الدموع الغزيرة لا شك أنها كانت أبرع وأصدق تعبير عن امتنانه البالغ لإنسانيتها التي بدت في عينيه رائعة وعظيمة.

ثم استقر في مجلسه، وبدأ يتذكر العمه حليلة من نسيان.. فقد كانت الصديقة المخلصة لزوجته الأولى أم هذا الصغير، وكانت منها بمثابة أمها أو أختها الكبرى. وحينما ماتت زوجته كانت العمه حليلة هي صاحبة القلب الثاني الذي يفيض عطفاً وشفقة على وليدها الوحيد سيامند.. فهي تتفقد حاله دائماً في هدوء وتكتم، بل كثيراً ما تسترق الفرص لرعايته استراقاً، ولعلها تقصد من ذلك أن لا تثير حفيظة خديجة وأن لا يكون في شيء من عملها ما يسبب استفزازها..

وعندما كرر عبارات الشكر لوفائها ونبيلها قالت له وهي تمسح
رأس الطفل المستريح إلى حجرها :

- إن هذا الصغير قطعة عزيزة من ذكرى أمه في قلبي ، وسأرعى
هذه الذكرى جهد طاقتي ما دام في جسمي بقية من روح .

جاء كلامها هذا بشرى عظيمة زفت إلى والد سيامند في وقت هو
أحوج ما يكون إلى مثلها . فلقد ظل يتيه في دوامة من التفكير الحائر ،
بحثاً عما يستطيع أن يعهد إليه برعايته إذا ما نزل به الموت ، دون أن
يهديه خاطره إلى أحد .

ولكنه عاد ينظر إليها وإلى ثقل ما تحمله على ظهرها من سنين
وتساءل في نفسه : ولكن أنى للأقدار أن تضمن امتداد عمر هذه الإنسانية
إلى أن يصبح سيامند مالكاً لرشده فيما إذا قدر عليه أن يموت قريباً ؟
ولذلك فقد كان جوابه على البشرى التي نالها منها أن رفع يديه
قائلاً :

- إنني أتضرع إلى الله تعالى أن يطيل في حياتك ، كي تجدي السبيل
إلى تحقيق إنسانيتك الجيدة . أما أنا فلا أظنني إلا وشيك الارتحال .. إنني
أشعر بالموت يطلّ عليّ ويسرع في الاقتراب مني .. وكل ما سينشب
غصةً في حلقي ساعة النزاع هو أمر هذا الطفل ، فليس له من ورائي عم
أو خال أو أي قريب يحتضنه ، ولا أجد لأبيه أي صديق يرى في رعاية

ابنه حقاً للصدقة عليه. أما الآن فعليّ أن أعود فأكرر شكري لك، فلن أشعر بوقع هذه الغصة عندما أتصور مكان صغيري في حجرِكَ ومكان العطف والمسح على رأسه في يدِكَ. وعليّ إذ ذاك وأنا أعاني شدة النزع أن أبتهل إلى الله في ضراعة كي يبارك في عمرك من بعدي.

قالت له العمة حليلة :

- لا تهتم كثيراً يا حاج حامد لهذا الأمر، ولا تجهد نفسك في البحث عن مشرف بعدك على ابنك؛ فسأكون أنا أمه ما امتدت بي الحياة، وسيكون ابني « شريف » أباه الراعي الشفوق. ولا شك أن زوجتك ستكون عوناً لكلينا في ذلك، إنها اليوم بنت صغيرة لا تفقه بعد قيمة الأسرة ولا تشعر بمعنى الأمومة والشفقة اللتين تربط ما بين الأمهات وأولادهن، فلا تسرف الآن في لومها والعتاب عليها. ولكن تأكد أنها عما قريب ستشعر بما لا تشعر به اليوم وستجمع بين التكفير عما مضى والقيام بواجب ما هوأت.



وبعد برهة، عاد الحاج حامد بابنه إلى البيت وقد استشعرت نفسه برد الراحة والانتعاش. واستقبلته زوجته تسأله في اهتمام :

- أين كنت يا حامد؟ لقد عدت إليك بعد تفتيش طويل عن الولد

لأخبرك بأني لم أجده رغم بحثي الطويل عنه.

وتقدمت إليه لتأخذ الولد من يده ، وتابعت حديثها في نغمة

مشفقة :

- وا أسفاه.. لا بد أنك حملت نفسك مشقة كبيرة فوق ما أنت فيه ، بحثاً عن هذا الطفل.

ولم يتردد الحاج حامد في أن يجيبها بأنه كان عند جارتهم العمّة حليلة وأن ابنه كان عندها وكانت تطعمه وتعطف عليه ، ولكنه لم يزد على ذلك.

وفهمت خديجة ما يرمي إليه زوجها من تعريض بها وتقريع لها.. غير أنها تغابت عن فهم ذلك وأجابته في حيرة :

- لقد فتشت والله في كل جهات الدار من داخلها وخارجها بحثاً عنه ، ولكن لم يخطر في بالي أبداً أن يكون قد تسلل إلى بيت جارتنا. ثم نظرت إلى سيامند وأخذت تداعبه بيدها قائلة :

- ما أخبثك أيها الصغير.. لقد أتعبتني وأتعبت والدك المريض في هذا اليوم.. لا بد أنك اكتشفت صديقة جميلة لك عند العمّة حليلة..

ثم انطلقت به إلى داخل الدار وهي تحمد الله في نفسها على أنها قد نجت من غضبة شديدة كان من المتوقع أن يداهما بها زوجها ، فقد أدركت أن استكانة سيامند إلى تلك المرأة ورؤية والده له عندها

وهي تطعمه وتعطف عليه ، أكبر دليل يمكن أن يتمسك به زوجها على أنها لا تولي هذا الولد أي عناية حتى في إشباع بطنه الصغير.. ثم هي تعلم أنها في الواقع لم تذهب لتفتش عنه كما زعمت ولكنها ذهبت إذ ذاك لتجترّ غضبها وغيرتها..

أما الحاج حامد ، فإن السبب الذي حال دون غضبه منها لذلك ، يعود إلى مدى تأثيره وارتياحه لحديث العمة حليلة ، فقد أثلجت فؤاده الذي كان مفعماً بالقلق من جهة ، وأقنعتة بسلامة نية زوجته الصغيرة من جهة أخرى؛ وإن كان يدرك في نفس الوقت أن عليه أن يتحمل في كثير من الأحيان جهلها وطيشها غير أن ذلك الارتياح لم يدفع عنه ذلك المرض الذي داهمه منذ يومين ، فما أدركه المساء إلا وقد تسللت إليه وطأة الحمى مرة أخرى ، وقعدت زوجته إلى جانبه تساهره وتبدي قلقها عليه؛ أما طفله فقد أغفى منذ أن دخل المساء ، ولكن زوجته حَرَصَتْ أن تجعل سريره إلى جانب سرير أبيه في الغرفة نفسها كي لا يأخذه القلق من أجله إذا ما اشتهى أن يراه. ولا ريب أن هذا التفكير منها كان إنسانية خالصة أيقظها في نفسها هدوء زوجها في تلك الساعة التي كانت تتوقع فيها شراً..

وكان الحاج حامد - وهو يتقلب على فراشه بحثاً عن بقعة باردة فيه - ينظر إلى زوجته المتكئة إلى جانبه وإلى ولده النائم في الجانب

الآخر، ويتخيل حال كل منهما بعد مماته، ويفكر فيما قالت العمة حليلة صباح ذلك اليوم؛ ثم يتساءل في نفسه: هل حقاً أن زوجته ستكون عوناً لها ولائها في رعاية ولده وبيته من بعده؟ وينظر إليها وهو يسائل نفسه هذا السؤال، فيبدو له من سكينتها وقلق وجهها ما يؤكد في نفسه صدق رأي العمة حليلة فيها.

ولما ارتاح خاطره إلى هذا الترجيح، نظر إليها متكئاً وأخذ بيدها قائلاً لها:

- لماذا لا تنامين يا خديجة؟

- لا أجدني ناعسة

- ولكن الليل قد انتصف..

- ولماذا لا تنام أنت؟

- أنا معذب الجسد والفكر يا خديجة.. معذب بما عفاك الله منه، ولذلك لا أستطيع أن أنام.

- أما أنك معذب الجسد فنعم، وأسأل الله أن يعافيك، وأما عذاب الفكر فلماذا؟

فسكت الحاج حامد قليلاً، ثم شدَّ على يدها قائلاً:

- فما دام كلانا ساهراً لا يستطيع أن ينام، فلنتقاسم معاً عذاب الفكر.

يخيل إلي يا صديقتي أنني لن أعيش طويلاً بعد اليوم، فإذا كان خيالي هذا صحيحاً فلن آسف إلا لفراق اثنين فقط هما كل أقاربي وأهلي في هذه الدنيا: أنت يا خديجة وولدي هذا؛ وأنت تعلمين أن لي ثروة كبيرة والحمد لله، ومما يسرني أن هذه الثروة ستكون حقاً حلالاً لكما فقط أنتما الاثنين. غير أنني أخشى عليكم من كيد حساد هذه القرية، وهم كثيرون، وأعلم أنهم لن يتوانوا - حينما تسنح لهم الفرصة - عن نفث نار غيظهم وحقدهم عليّ أو على من يلوذ بي من أقاربي، وإنني لأخاف أن يستغلوا ضعفكم من بعدي فيقعوا على ثروتكما هذه ويبددوها شرّ تبديد فيما بينهم. وسواء بعد ذلك أن يشقى صغيري هذا ويصبح محروماً من ماله وحقه، أو أن تتعذبي أنت ويتحول أمرك عن الرخاء والنعيم إلى الشدة والعذاب، بل يخيل إلي أن سعادة كل منكما هي بسعادة الآخر، وأن عذاب أحكما سيكون سبباً لشقاء الثاني وعذابه.

ولقد كنت أفكر منذ حين فيمن أستطيع أن أكل إليه شأنكما وأأتمنه على رعاية أموالكما، فما كان قلبي يستكين إلى أحد من كل أهل القرية، حتى ساقني الله - على غير قصد مني - صباح هذا اليوم إلى بيت جارتنا: العمة حليلة. وإذا بي أكتشف فيها كنزاً من النبل والإنسانية الصادقة، ولا والله يا خديجة لم تكن تخطر لي هذه الجارة

على بال قبل ذلك رغم أنها - كما تجدين - تقيم بلصق دارنا ولي بها معرفة قديمة..! ومن نعم الله عليها وعلينا أن رزقها ابناً - هو كما يبدو من حديثها - لا يقل عنها نبلاً وإنسانية، ولقد فاتني إلى هذا اليوم أن أقوم بواجب التعارف التام معه، وإن كنت أعرفه معرفة سطحية كجار يسكن إلى جانبنا.

ولا أخفيك أنني أخذت أفكر منذ الساعة التي اطلعت فيها على شفقة هذه المرأة ونبيلها الخالص من الرياء في أن أتخذها وابنها "شريف" وصييين من بعدي يقومان برعايتكما وتربية هذه الثروة لأجلكما. أما الأم فستنهض أتم نهوض - إذا كُتِبَ لها أن تعيش - بخدمتك في داخل البيت وبتنشئة هذا الصغير، وأما ابنها فسيمكنه أن يرعى ثرواتها ويدير شأن إنتاجها وتربيتها، ولا بأس أن يكون لكل منهما قسط من المنفعة لقاء هذا الجهد، ولقد أحبيت أن أطلعك على رأيي هذا وأن أستشيرك فيه، فماذا تقولين؟

لم تكن خديجة تعرف بعد كيف تهتم بمثل هذه المواقف والأفكار، أو هي لم تكن تريد أن تكدّ ذهنها بخيال موت زوجها ومشكلة رعاية البيت من بعده؛ فهي أفكار تبعث على الوحشة بالنظر لفتاة لم تتجاوز بعد سن العشرين بقطع النظر عما إذا كان يهمها كثيراً بقاء زوجها إلى جانبها أم لا؛ وأغلب الظن أنه لم يكن ذلك يهمها

كثيراً.. ولذلك فقد أظهرت له مشاعر الجزع من حديثه هذا وقالت له :

- ولكن ما الداعي إلى أن تتصور هذه الفروض الموحشة..؟

إنك ستشفى قريباً بإذن الله وستجد أن هذه الأخيلة التي تتصورها الآن ليست إلا أوهاماً باطلة؛ وستعيش طويلاً ، وستكون أنت الراعي لمالك وأهلك إن شاء الله.

- ربما .. ولكنني على كل أحب أن أحتاط في الأمور ، وأحب أن أطمئن إلى أن فكرتي هذه لا تضايقك.

- أما أنا ، فلا أحب مثل هذا الاحتياط المتشائم ، غير أنك لن تجدني متضايقة من أية فكرة تقتنع أنت شخصياً بها.

- إذاً فقد اتفقنا ، وهذا ما أجد نفسي منشرحة له. وسنجلس صباح غد إلى العمة حليلة وابنها شريف قبل أن يذهب إلى حقله ، ونعرض عليهما هذا الرأي.



وفي صباح اليوم الثاني ، تلاقي هؤلاء جميعاً في منزل الحاج حامد؛ واتفقوا في جلسة شاع فيها الود والهدوء على أن يكون شريف وصياً ووكيلاً للحاج حامد على ماله وبيته من بعده وأن تتعهد والدته بتربية سيامند ورعايته.



بدأ الحاج حامد يشعر بعد ذلك اليوم بسكينة القلب، وأخذ يحسّ بأن له من ورائه أصحاباً أوفياء مخلصين له ولأهله ولماله..

وظن أنه بدأ ينشط من عقال مرضه، فذهب بعد ذلك عدة أيام إلى الحقل، غير أنه ما لبث أن اضطر إلى العكوف في البيت ثانية تحت وطأة مرضه الذي تبين أنه لم يفارقه بعد، بل أخذت صحته تتدهور بشكل مستمر.

وكانت معاملة زوجته له أثناء ذلك خليطاً من النشاط والتهاون والتبرّم... وبعد ستة أسابيع كان الحاج حامد قد أراح زوجته منه إلى الأبد وفارق الحياة.

ولكن لا شك أن وفاته أحدثت في نفس زوجته رجّة، أقل ما يمكن أن يكون من أسبابها، ضرورة انصراف ذهنها إلى كيفية تكوين وضعها وبيتها من بعده.. أما العمة حليلة، فلا ريب أنها تألمت لوفاته ألماً بليغاً، ولقد آلت على نفسها أن تبذل كل ما لديها من جهد في سبيل رعاية وحيدة الذي كان حبيباً إلى قلبه، ولكنها أخذت تفكر لذلك طويلاً في طريقة حكيمة لا تثير مشاعر خديجة وضغائنها فيما إذا

كانت لا تزال محتفظة بغيرتها من ذلك اليتيم الصغير.

ولقد اهتمت العمة حليلة إلى هذه الطريقة حينما بدأت خديجة نفسها تستشيرها في شؤون البيت وتستعينها في تدبير ما لم تكن مسؤولة عنه من قبل. فقد كانت لا تحمّل نفسها - من قبل - مسؤولية رعاية الأسطبل وإطعام الدواب والعناية بها، وكانت حتى عملية حلب البقرة التي أعدها الحاج حامد درّها لطعام بيته عملية شاقة ثقيلة عليها..

ولذا فهي لم تجد أمامها إلا أن تهرع إلى المرأة التي قال عنها زوجها: إنها الأمانة على البيت من بعده، لتطلب منها المعونة تحت ستار الاستشارة وطلب الرأي.

وأجابتها العمة حليلة في لهفة الأم العطوف قائلة:

- لا عليك يا ابنتي.. سأعينك في هذا كله وحتى هذا الولد الصغير لا بدّ أن أخفف عنك كثيراً من أعباء خدمته ورعايته.

والواقع أن ما يهمها من ذلك كله إنما هو الوصول إلى رعاية سيامند وحفظه كما وعدت بذلك أباه، بيد أنها رضيت أن تكون هذه المهمة مندرجة ضمن قائمة من الخدمات الأخرى كي لا تثير شيئاً من النفور في نفس خديجة على سيامند، أو لكي لا تظن أن زوجها لم يكن يعنيه من رعاية البيت كله إلا النظر إلى سيامند.

وسرّت خديجة بمظهر هذا العطف الجياش من العمة حليلة،

وأشرب قلبها حب جارتها هذه.. وأصبحت العمة حليلة لا تُرى إلا في منزل جارتها الأرملة الشابة، تتعهد كل شأنها، ثم تلتفت إلى سيامند فتصلح من شأنه - وكان أكثر ما يهتمها منه غذاؤه ونظافته - ثم تمضي عائدة بعد ذلك إلى بيتها.

ولكن خديجة لم تكن تستأنس وحدها في البيت، فما تكاد جارتها تدبر عنها لتنتقل إلى شأنها حتى تتبعها هذه إلى بيتها، تنشد عندها الأنس والأمن من الوحشة. ولم يكن هذا ليضايق العمة حليلة، بل ربما كانت هي الأخرى بحاجة إلى من تتبادل معها أطراف الحديث في دارها الخاوية الصغيرة؛ إذ كان ابنها شريف لا يعود إليها بعد أن يفارقها من شروق الشمس إلا بعد أن يمتد ظلام الليل فوق وادي القرية كله. خصوصاً وقد ازدوجت مهمته بعد وفاة الحاج حامد، إذ عليه أن يكون الحارس الأمين - على أقل تقدير - على المزارع والأراضي والدواب التي أصبح هو المشرف عليها.

غير أن تفكير شريف لم يكن منصرفاً إلى رعاية تلك الأراضي بقدر ما كان منصرفاً إلى خديجة نفسها، فقد نبهه وفاة زوجها إليها، بالإضافة إلى أنه رآها عدة مرات فأعجب بها أيما إعجاب واستحوذ جمالها على قلبه. وفي إحدى الأمسيات عاد شريف إلى البيت وقد صمم في نفسه أن يفتح أمه بشأن خديجة.

وبدأ الحديث بمزارع المرحوم ، ومشكلة رعايتها والإنفاق عليها
ثم استرسل فقال :

- ألا تجددين أنظار شباب القرية منصرفة إلى خديجة يا أماه!

- ربما.. ولكني لم أنتبه إلى شيء من ذلك بعد.

- إن حديثهم هناك في مجتمعهم عند نبع الماء لا يدور إلا عنها
وعن أموال زوجها ومن سيتزوجها.

- على كل حال ، البنت لن تظل هكذا يا بني.. فهي شابة جميلة..

ثم هي لا تطيق حياة الترميل في هذا السن الصغير.

- وما رأيك يا أماه؟ .. هل نتركها تكون من نصيب الآخرين؟

فسكتت الأم تفكر قليلاً ، فقد فوجئت بهذه الرغبة عند ابنتها ، أما هي
فقد كانت تفكر له في فتاة أخرى بكر تكون أعقل وأليق من هذه...

ثم أجابته في اهتمام :

- وهل تعجبك خديجة زوجة يا بني..؟

- ولم لا؟.. وها أنت تقولين أنها جميلة ومرغوب فيها..

ثم من يكون أليق بها منا ونحن أولو الإشراف على كل شؤونها
وأموال زوجها؟ .. بل لا يجوز في رأيي أن يوجد بيننا وبينها غريب قد
يتسلل إلى التصرف بهذه الأموال ما دمنا نحن الأوصياء عليها.

وكأنما اقتنعت أمه مبدئياً بوجهة نظر ابنتها هذه ، أوهي لم ترد أن

تعارض رغبة في نفس ابنها ، فقالت له :

- دعني إذاً أحاول اكتشاف رغبتها هي قبل أن نسلك السبيل

العملي إلى شيء مما تقول.

فأجابها وقد داخله السرور :

- حسناً.. إنه لرأي سديد.

وفكرت قليلاً ثم قالت :

- فإذا لم يكن لديك مانع فلتأت غداً إلى البيت مع العصر أو قبله ،

فقد اعتادت خديجة أن تكون عندي في ذلك الوقت من كل يوم.

وسأحاول أن أجعل من رؤيتها لك إذ ذاك موضوع بحث حول هذا الأمر.

فتكامل سرور شريف بهذا الرأي. وخرج من صباح اليوم الثاني إلى

حقله الصغير وقد هياً في نفسه أسباب العودة إلى الدار في الوقت المناسب.

ومرّ في طريقه على مزارع الحاج حامد الشاسعة ، وأجال النظر في أطرافها

وهو يخبّ فوق ظهر حماره ، وقال في نفسه وقد داخلته الغبطة :

إنها لسعادة كبرى أن يأتيني المال والجمال دفعة واحدة!.. لقد كنت

معذوراً قبل اليوم أن أنشغل عن رعاية كل هذه الحقول.. ولكن لا بدّ أن

أتفرغ لها بعد الآن تفرغاً كاملاً..

ولم ينس شريف أن يعود إلى الدار مع أذان العصر ، فقد اشتد به

الجوع وهو لم يأخذ معه غذاءه في ذلك اليوم...

وأدخل دابته إلى زريبتها الصغيرة جانب الدار، ثم أسرع فأصلح من ثيابه، وغسل وجهه ويديه، وأخرج من جيبه مرآته الصغيرة، ليطمئن على روعة شبابه وجمال شكله، ولمس شاربيه المفتولين لمسة أخيرة. ثم تنحنح ودخل الدار متجهاً نحو الغرفة، متجاهلاً وجود أحد في البيت غير أمه.. وتوقف قليلاً عندما رأى خديجة، وتظاهر بوقع المفاجأة عليه.. ثم قال لها:

- خديجة؟ أهلاً وسهلاً.. أرجو أن تكوني بخير..

أما هي فقد فوجئت فعلاً بظهوره أمامها، فسكتت قليلاً وهي لا تحير جواباً، وقد تجلّى على ملامحها الاستحياء، ثم قالت له:

- الحمد لله كيف صحتك أنت.

واستند هو إلى طرف من جدار الغرفة قائلاً - وهو ينظر إلى أمه - :

- يبدو أنني قطعت حديثاً لكما، إذا كان كذلك فلا أنصرف.

فلم تجب الأم، والتفت إلى خديجة كأنما تسألها أن تجيبه.

ورغم أن خديجة كانت تودّ في قرارة نفسها أن يتسنّى لها مثل هذا المجلس الذي يجمعها بشاب يقف معجباً بمفاتنها - فقد لاقت بسبب كبريائها وحيائها صعوبة كبيرة في أن تقول له :

- لا حديث بيننا يقطعه وجودك.

ثم انتبهت إلى خمارها المتساقط عن رأسها، وأخذت تحكم

إدارته حول وجهها وهي تقول مبتسمة :

- وإذا كان هنالك حديث بيننا، فهو عن أئقالنا عليكم وإعابنا لكم..

فابتدرتها أم شريف قائلة :

- هذا لو لم نكن أسرة واحدة.. ولكن ألا تعلمين يا خديجة أننا

وأنت أهل بيت واحد؟

وهنا تسلل شريف من الغرفة تاركاً الحديث بين خديجة وأمه وقد

دخل في موضوع الأسرة والأهل... وهو موضوع لا شك أنه يسره كثيراً.

ومع خروجه، مالت العمة حليلة إلى خديجة تواصل حديثها

قائلة في ابتسام مرح :

- أما إذا كان في نظرك أننا لم نصبح بعد أهل بيت واحد، فثمة

سبيل سهل يجعلنا كذلك حقيقة... فما رأيك؟

فسكتت خديجة قليلاً وقد أدركت ما تقصد إليه العمة حليلة، ثم

أجابتها في ابتسام خبيثة :

- الأمر في هذا يعود إلى سيدة الأسرة.

ففهمت العمة حليلة أن لديها رغبة في هذا المشروع..

وإذ ذاك واصلت حديثها بصراحة أكثر تقول :

- المقصود يا بنتي أن تتوثق أسباب الصلة بيننا أكثر كي لا ندع

مجالاً لحاسد أو طامع يدخل بيننا.. ثم إن شريفاً كما تعرفينه يا بنتي

شاب مهذب كل ما يهّمه هو أن يخلص في رعاية شأنك وشأن هذا الولد وفي حفظ أموالكما من أيدي المتكالبين والطامعين.

واستجابت خديجة لهذا.. بل وافق هوى في نفسها، غير أنها لم تكن تفكر في كل هذه الأسباب المبررة التي تتحدث عنها العمة حليلة، بل كانت منصرفة الذهن إلى تصوّر أنها فتاة يافعة ذات جمال، وأن شريفاً شاب ممتلئ لا يتجاوز الثلاثين.. معجب بشبابه وتناسق جسمه، فهي تأمل عنده سعادة لم تكن قد جنتها فيما مضى كما كانت تحب.

وازداد فرح شريف حينما علم بموافقتها، بل لا شك أن شعوره بالغبطة كان أكثر من شعورها هي، إذ هو شاب فقير لم يكن يسمح لتفكيره يوماً ما أن يتصور الزواج من فتاة جميلة كهذه، لأنه لن يجد مهرًا مناسباً لها؛ فكيف وقد جاءه الجمال ومعه المال الذي كان يعجز عن تدبير القليل منه؟

ولم تكن أمه أقل منه فرحاً بذلك، فهو الابن الوحيد الذي عاش لها إلى أن رآته وقد أصبح شاباً يتزوج، بل لربما فرحت به عوضاً عن أبيه أيضاً الذي قتل منذ تسع سنين في خصومة بينه وبين أحد زعماء القرية.

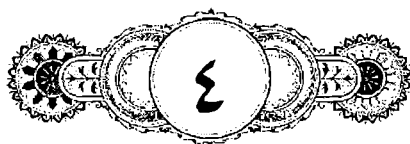
وفي ليلة هادئة لم يحدث فيها أي ضجيج، زفت خديجة إلى زوجها الجديد في دارها. ولا ريب أن العمة حليلة كانت تلك الليلة تمرّ بأسعد أيام حياتها لو لم يمتدّ فوق سعادتها تلك ضباب داكن من ذكرى

المرحوم الحاج حامد..

فقد كان يحز في نفسها أن خياله وهو يودع في مرض موته أسرته وداره لم يبارح خاطرها في تلك الليلة أبداً. غير أنها جهدت أن تبدد ذلك الضباب بالمبالغة في تفريح ابنه الصغير سيامند، إذ ألبسته في تلك الليلة ثياباً جديدة مزركشة، وصنعت له «الرقاق» وهي النوع الذي يفضل من الحلوى، وأسبغت عليه مزيداً من العطف والحنان، حتى جعلته يعيش فعلاً في فرحة غامرة لا يدري سببها ومأتاها. وكانت كلما رآته وهو يلهو ويمرح، ينتعش خاطرها من ضباب تلك الذكرى المحزنة، إذ يخيل إليها أن روح والده لا شك تزهى وتسعد وهي ترى آثار هذه البهجة والرضى على وجه ابنه الصغير.

والتأم بعد ذلك وضع هؤلاء الأربع في أسرة واحدة في بيت واحد. وغدا رب هذه الأسرة المسؤول عنها شريفاً. ونالت عنده خديجة - فعلاً - ما كانت تؤمله مما فاتها أن تناله في حياتها الماضية في ظل زوجها السابق.

وغدا شريف يعنى بالأراضي والأموال التي وكلت إليه عناية المالك لها، أما أمه فظلت تولي ثقل اهتمامها لرعاية سيامند وتربيته وقد بلغ من العمر إذ ذاك خمس سنوات.



لم يكتب للعمه حلیمه أن تعيش طویلاً بعد زواج ابنها شریف. فقد
داهمها - بعد ستة أشهر فقط من زواجه - مرض عضال في القلب، لم
تستطع مقاومته أكثر من بضعة أيام، إذ فارت من بعدها الحیاة.

ولم يكن وقع وفاتها شديداً على نفس أيّ من ابنها أو زوجته.
فالزوجة كانت مترعة القلب بالسعادة واللذة إلى جانب زوجها
الجديد، والزوج كان مشغول الفؤاد بحب فتاته الجميلة التي استطاعت أن
تجتذب نحوها كل مشاعره.

ولعل قلباً صغيراً واحداً قاسى الحزن الشديد لوفاة العمه
حلیمه، وهو قلب سیامند. فقد شعر هذا الصغير بفراغ كبير موحش
إثر فقدته لتلك العمه الحنون. كان يعاني ضيقاً شديداً بسبب أنه لا يجد
من يرشده إليها أو يفهم سرّ غيابها عن الدار.

ولقد كان ضيقه وبحته هذا مبعث ثاقل وتبرم في قلب كل من
شريف وزوجته. فكانا يقاومان ضجيجيه بالانتهار والتخويف في معظم

الأحيان، وبإلهائه ببعض الأطعمة التافهة في لا مبالاة في أحيان أخرى. غير أن هذا النوع من المقابلة له كان يثير في نفسه ضيقاً أشد وقلقاً أعظم؛ إذ كان الانتهاز يزيد في شعوره بالوحشة والحنين إلى مربيته التي عودته على مظهر الشفقة والتدليل، وكان يحسّ أن في محاولة إسكاتهم إياه بالأطعمة التافهة في امتهان وإعراض جرحاً أليماً لدلاله الذي ربّى عليه.

ولا ريب أن هذا الشعور الساخط كان يحمّسه على القيام بمزيد من التمرد تجاه كل من الزوجين المنشغلين ببعضهما.

غير أن هذا التمرد لم يدفع أحداً من الزوجين لتحسين معاملته معه. أما الزوجة فلأن عقداً نفسية كثيرة كانت قد تراكمت في نفسها تجاهه منذ أن كان أبوه حياً يتعهده ويدلّله فوق ما كان يدلّله هي... وأما الزوج، فقد كان يتصوّر أن تمرّد هذا الطفل ليس منبعثاً إلا من كراهية دفينّة في نفسه له هو بالذات...!، بل ربما كانت روحه الشرسة - في ظنه - امتداداً لروح أبيه الذي قد يكره أن يرى شاباً مثله يرث سعادته الزوجية ويمتلك ناصية أمواله.. ولا ريب أن مبعث هذه الأخيصة إلى فكره هو أحلامه الطامعة في تلك الثروات المبعثرة أمامه، ونفسه التي كانت تلحّ عليه في اكتساب كل ربح ونفع دون أن تذكره بأي حق للوارث الشرعي في مقابل ذلك. لقد كانت أحلام نفسه هذه

تجعله يرى في وارث الحاج حامد وابنه الوحيد عنصر مقاومة كبرى
سيقوم في وجهه ويمنعه من تحقيق أحلامه الطامئة.

ولذلك كان يشتد عليه في المقاومة بل والضرب في كثير من
الأحيان..! كان يثور عليه في عنف حينما يرى أنه قد أقلق راحته
بضجيجيه أو تمرده ، ثم ينظر إليه شزراً وهو يقول لخديجة :

- إن هذا الخبيث لا يروم إلا إفساد سعادتي وهناء عيشي.

فإذا عاد إلى الصخب والضجيج ، شدّه من يده وأخرجه من الدار ،
وأغلق الباب في وجهه ، ثم رجع في هدوء يلتمس نشوة السعادة بين
أحضان زوجته. بينما يشتد الغيظ حينئذ بسيامند من خلف الباب ، فينهال
عليه طرقاتاً بالحجارة ويعلو صوته بالبكاء والضجيج ، ولكنّ أحداً من
الداخل لا يردّ عليه. حتى إذا اشتدّ به الملل انصرف بنظره إلى الأطفال
الذين يلعبون عن كثب وبدأت مشاعره تخدر بالانتباه إلى مرحهم وهم
يلعبون بالأكعاب.. غير أنه لا يلبث أن يسأل أكبرهم سناً :

- يا هذا.. ألا تعلم أين ذهبت عمتي حليلة؟

فيجييه وهو يطرق كعباً بأخر ليرميه أمام كعب زميله :

- إنها ماتت..أما رأيتهم وهم يحملونها إلى خارج القرية؟

ويفكر سيامند في معنى ماتت قائلاً :

- أموفق بذلك أنت؟.. ألن تعود ثانية؟

ففيقهه أحدهم قائلاً :

- وهل يعود الميت يا مجنون؟

وهنا ينتحي سيامند جانباً ، ثم يجلس ساهماً ينظر إلى لعبة الأكعاب.. ولكنه لا يلبث أن ينسى مشكلته ، وينشغل فكره بمراقبة الربح والخسران في تلك اللعبة الشائقة.

كان هذا هو شأن شريف مع سيامند في معظم الأحيان ، وكان هذا شأن سيامند تجاه ذلك؛ حتى أصبحت مثابته المفضلة بعد ذلك هي الميدان الفسيح أمام باب الدار ، حيث يجتمع الأطفال كل يوم هناك يلعبون بالأكعاب.

ولقد أكسبته مثابته تلك تعلقاً وخبرة بتلك اللعبة ، مع توالي الأيام على الرغم من أن سنّه لم تكن تتجاوز الخامسة بعد.

وليس هذا فقط ، بل قطعت أيضاً بالتدريج حنينه الشديد إلى عمته حليلة.. وأراحت أيضاً « العروسين » من صراخه الدائم في الدار واحتجاجه على اللامبالاة التي يجدها منهما. وجعلته هوايته الجديدة هذه يقنع بالقدر الزهيد والتافه من الغذاء تناوله إياه خديجة أو يعثر عليه هو في المطبخ حيث لا يلبث أن يركض عائداً إلى زملائه وهو يفرق الكعاب التي ملأ بها جيبه في زهو ومرح. وفي المساء يكون هو آخر عائد إلى البيت من الأطفال.

ولا شك أن هذا الانصراف التام من سيامند كان مبعث ارتياح
وسرور إلى قلب كل من الزوجين.. فقد قال شريف لزوجته مرة حينما
كان عائداً من حقله إلى البيت ومر في طريقه بسيامند وهو غارق مع
صبية من حوله في لعبة الأكعاب - قال لها :

- لقد عثر والحمد لله سيامند على عمته الغالية أخيراً

وسألته في تعجب :

- وأين عثر عليها؟

- لقد عثر عليها بين أولاد القرية وهم يلعبون بالكعب..!

- هذا شيء حسن.. كل ما كنا نريده هو أن يرتاح ، ويتركنا نحن

مرتاحين منه..

ولكنه قاطعها قائلاً :

- أما أنا فلا يريحني منه أن يستمرّ على ذلك.. إن لمثله عندي في

أعمال الفلاحة مائة خدمة تتطلبه ، غير أنني سأمهله إلى فترة أخرى

ريثما يشتد عوده.

ثم جلس إلى زوجته وراح يحدثها :

- هل تعلمين أنني اكتشفت مما قاله لي الفلاحون والأجراء

الذين يشتغلون في أراضي زوجك أنها كانت أراضي مهملة للغاية في

عهده؟ والدليل على ذلك أنني استطعت أن أجعل من محصول القمح

وحده في هذه السنة غلة تساوي جميع منتجات أرضه على عهده هو؛
أما الكروم التي كانت نهباً للغادين والرائحين من أهالي القرية،
فسيكون لمتوجها فائض كبير عن بقية السنوات الماضية بحيث يمكن أن
يكون قيمةً لأثمن قلادة ذهبية تليق بعنقك الجميل.

فابتسمت في سرور، وراحت تتحسس في زهو جيدها المتألق وقالت :
- إنها مفاجأة مشكورة كنت أتوقعها منك فعلاً ، فقد وعدتني
بها منذ أشهر.

ثم استضحكت وأردفت قائلة :
- ولا بدّ أن هذا الفائض في منتوج الكروم سيتوفر كل عام ،
أليس كذلك؟

فتضاحكا معاً ، ثم استدركت تقول :
- طبعاً أنا لا أعني أن لي عليك في كل سنة قلادة ثمينة ، وإنما أعني
أنه يمكن أن يكون لهذا الفائض مصرف آخر.. لمولودنا الجديد.. مثلاً.

فمال إليها قائلاً ، وقد أدرك أنها تبشره بمولود تحمله له :
- المولود الجديد يا خديجة ليس له الفائض فقط ، وإنما له الثروة
بأجمعها.

فشكرته في خجل مصطنع.. غير أن الواقع أنها سرّت لهذه الكلمة
أكثر من سرورها بالقلادة ، إذ كانت تريد أن تطمئن إلى أن سيامند لن

يستطيع منع أولادها غداً من التمتع بالثروة الواسعة التي تركها زوجها القديم من ورائه.

ولقد أدرك زوجها هذا القلق في نفسها فأحب أن يزيدا اطمئناناً وتابع حديثه قائلاً:

- تأكدي يا خديجة أن هذه الثروة لنا، لن يستطيع أن ينتزعها منا أحد غير صبيتنا وأولادنا الصغار. لقد أوصاني الحاج حامد - جاداً - أن أكون خادماً أميناً لابنه في رعاية هذه الأموال والأراضي، وأمرني أن أكّد في فلاحتها والسهر عليها حتى إذا صارت لقمة سائغة قدّمتها لقم ابنه... فبأي عقل أحرق شبابي وأذيب طاقتي في جهد أقدم نتيجته لطفل لم يشعر يوماً أن له مالاً أو بستاناً أو ليس له شيء؟ إنّ له علي أن أطعمه وأسقيه وأكسوه وأؤويه، حتى إذا كبر كان عليه أن يشتغل وينال قيمة شغله.

ونظر إليها قائلاً:

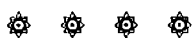
- أليس كذلك؟

لم تستطع خديجة أن تتسرع فتقول له: نعم. إذ رغم أنها كانت لا تشعر بعطف منها على سيامند، ورغم أنها كانت ولا تزال طامعة في غير تعقل بأموال زوجها - فقد حال بينها وبين موافقتها لكلام زوجها القاسي، رحمة قلما تستطيع الأنثى أن تتغلب عليها؛ ثم حال بينها

وبين ذلك أيضاً تساؤل يلحّ في نفسها قائلاً :

فلماذا تكون الثروة بأجمعها لمولودنا الصغير كما تقول ؟ أليس
سيامند أيضاً مولوداً صغيراً لأبيه الذي كان يملك هذه الأموال ؟
ولكنها فضلت أن تقول له بعد تفكير :

- على كلٍ إن قضية سيامند ليست مشكلة واقعة الآن - وحينما
يكبر ويتاح له أن يطالب بشيء ما ، تستطيع أن ترضيه وتنتهي مشكلته
بشئٍ الوسائل .



ومرت الأيام تمضي على هذه الشاكلة : شريف ، منصرف في
نشاط الممتلك إلى تحصيل أكبر منتوج من أراضيه ومزروعاته؛ وسيامند
منصرف في ولع المقامر إلى اللعب بالأكعب ابتغاء الحصول على أكبر
قدر منها وجمعها تحت وسادة نومه .

ولقد جعلته هذه الهواية التي لم تهَيِّئ الأقدار أمامه مسلاً
غيرها ، يعيش غير مكترث بل وغير منتبه إلى معاملة خليفتي أمه وأبيه
له . إذ كان في النهار لا يعود إلى البيت إلا ليعثر على طعام يسكت به
جوعه أياً كان ، وفي المساء لا يعود إليه إلا لينام وذلك بعد إعياء
طويل . غير أنه كان إذا عاد في المساء لينام ، جلس قبل ذلك في فراشه

بحسب خسارته أو ربحه في ذلك النهار؛ ثم أخذ يبعثر أمامه كل ما قد جمعه لديه من أكعاب، فيعدّها بدّقة، حتى إذا اطمأن إلى أن ماله يفوق ما لدى بقية اللاعبين من أولاد القرية، جمعها وأعادها إلى الكيس الذي يحفظها فيه ووضع الكيس تحت وسادته. ثم وضع رأسه بعد ذلك لينام!

ولقد كانت براعته في هذه اللعبة تفوق - فعلاً - براعة جميع أولاد القرية. وكان يتحدّاهم جميعاً، حتى إذا نازلوه، سرعان ما يربح منهم كل ما لديهم..

وفي غمرة هوايته هذه مع أولاد القرية، بدأ يدرك ما لوالده المرحوم من ثروات وأموال كثيرة يتصرف في جميعها اليوم خليفته - أو عمه كما يدعى - شريف. إذ قال أحدهم يوماً وقد غاظه أن سيامند سلبه كل ما معه من أكعاب في لعبة واحدة:

- ليس بالغريب أن يسلب هذا الصغير منا جميع أكعابنا ويكون أغنانا، فقد كان والده أغنى رجل في هذه القرية..

فنظر إليه سيامند متعجباً، وقال له:

- هل كان والدي يلعب مثلنا بالأكعاب؟

فضحك زميله الكبير قائلاً:

- لا ليس هذا.. ولكنني أقصد أنه كان صاحب بساتين كثيرة

وأراضي واسعة يؤجر بعضها ويزرع بعضها، وكانت ثروته من وراء
هذا ثروة عظيمة.

وأردف الزميل الخبيث قائلاً:

- ألا يخبرك بهذا عمك شريف؟ إن كل هذه البساتين هي الآن
تحت يده وتصرّفه!

وحدّق سيامند في وجه زميله قليلاً ثم قال له:

- لا.. ولكن عمتي حليلة قالت لي قبل أن تموت إن لنا بساتين
فيها رمان وعنب كثير، ولقد ذهبت معها مرة إلى تلك البساتين وأكلنا
هنالك رماناً لذيذاً.

ثم أردف - وهو يطرق كعباً بأخر يدعوه إلى النزال - قائلاً:

- ولكن عمي قال لي البارحة إنه سيأخذني معه إلى العمل في
تلك البساتين، غير أنني لن أذهب معه.
فسأله صاحبه: لماذا؟

- لا أحبه.. إنه يظل يعذبني ويضربني.. وكل ما يأتي به من مأكّل
وفواكه يطعمه لخالتي وحدها.

فضحك زميله قائلاً:

- إنك لمسكين ومظلوم يا سيامند.

فاغتاظ سيامند وردّ عليه قائلاً:

- بل المساكين أنتم أيها المغتاظون.. ألم أتغلب عليكم وأسلم بكم جميعاً كل أكعابكم؟

ورمى الكعب من يده في حدة على الأرض ، وأردف قائلاً :

- العب.. لأريك من هو المسكين الضعيف.

وفي تلك الأثناء مرّ به شريف عائداً من الحقل في طريقه إلى البيت ،

فصرخ فيه وهو يخبّ فوق دابته ، دون أن يتوقف :

- تعال يا سيامند..!

فالتفت فزعاً ينظر إليه ، غير أنه لم يرد عليه وتظاهر

بعدم الانتباه.

فشدّ شريف زمام دابته يستوقفها وصاح فيه ثانية :

- سيامند.. أيها الأطرش.. أقول لك تعال.

فلوى سيامند رأسه وجمع أكعابه في جيبه ، وانطلق.. بينما همس

زميله الخبيث في أذنه : أرأيت من المسكين الضعيف؟

ولما أدرك سيامند شريفاً قال له - ودابته تجري به وسيامند يجري

من خلفه -

- أما شبعت بعد من سفاهة اللعب في الأزقة؟

فسكت سيامند ، ولم يُحرّ جواباً ، وأردف عمه قائلاً :

- قلت لك منذ يومين إن عليك من الآن أن تغدو معي كل

صباح إلى الحقل وتعود معي كل مساء إلى البيت.. فلتعلم أنني لن أدعك بعد اليوم على هذه الحالة.

ففكر سيامند ملياً، ثم قال له وهو يركض من خلفه :

- هل يوجد في الحقل أولاد؟

- يوجد في الحقل خدمة... عمل... مقابل أكلك، أيها التعس

الكسول.

فاهتزت مشاعر سيامند لهذه الكلمة، وشعر بضميره الصغير لأول مرة أنه ثقيل ببطنه الذي يحمله معه على أصحاب البيت الذي يعيش فيه، وأدرك أنه حقاً مسكين وضعيف كما قال له الأولاد.

غير أن هذا الشعور لم يتبلور التعبير عنه في عقله بكلمات، ولكنه ظهر جلياً في عينيه المخضلتين بالدمع.

وظل يجري وراء عمه ساكناً مصغياً للدمع الذي ينهمر من عينيه حتى وصلا الدار.

واستقبلتهما خديجة عند الباب - وقد كانت فرغت لتوها من تغسيل ابنها الصغير كي يأتي أبوه فيراه وهو اجمل ما يكون - فلاحظت في عيني سيامند الانكسار وبريق الدمع، ونبهها ذلك إلى رثة ثيابه أيضاً وتكاثر الأوساخ والأقذار فوق جسمه.. فرق قلبها لحاله. ولا ريب أنها كانت تراه في معظم الأحيان على هذه الحالة،

غير أن الذي حرك وجدانها نحوه في هذه الساعة هو إحساسها بحرمانه من أم رءوم تعنى بتنظيفه كما تعنى هي بمولودها الصغير الذي لا تتحمل أن تراه في ساعة ما يتمرغ بين الأقدار. ولا ريب أنه إحساس طارئ لم تكن تنتبه إليه أيام كانت لم تصبح أمّاً بعد.

وقبل أن تسأل خديجة عن سبب بكائه ، بدأها زوجها قائلاً :

- لا أدري إن كان أدرك هذا الغلام ما قلت له أم لا. لقد كررت عليه ثانية الآن أنني لن أطيق رؤيته بعد اليوم ساعة من نهار يلعب مع أولاد القرية ما دام يأتي إلى البيت لبحث عن خبز فيه ، إن عليه أن يدرك أن البحث عن الخبز يكون هناك.. في الحقل..

فعلمت خديجة سبب بكاء سيامند وأخذت تهدئ من نزع زوجها قائلة :
- لا بدّ أنه سيدرك من نفسه هذا.. ولكن ألا تجده صغيراً بعدُ على الفلاحة والعمل في الحقل؟ إنه لا يزال في السادسة من عمره ، ونستطيع أن نجد له في هذا السن عملاً آخر يوافق طاقته. ما رأيك أن يقوم بمهمة إيصال الغذاء إليك في الظهر كل يوم ، بدلاً من الفلاحين الذين تشغلهم بذلك وتضيع عليهم بسببه أعمال أهم؟

فتأثر شريف بلهجة الشفقة التي أبدتها زوجته المحبوبة إليه وأخذ يقول :
- المهم أنني لا أريد أن أرى عاطلاً يسكن في داري.. وليكن العمل بعد ذلك من أي نوع كان.

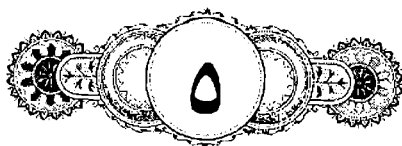
- إذا فليذهب سيامند يومين أو ثلاثة مع الفلاحين كي يهتدي إلى طريق الحقل ، حتى إذا أمنا عليه من الضياع تفرغ بعد ذلك لهذه المهمة.

ثم التفتت إلى سيامند كأنها تنبّهه إلى رحمتها به ودفاعها القوي عنه.. وأخذت تنفض أطراف ثيابه قائلة :

- إنك بحاجة إلى من ينظفك من هذه الأوساخ أيها الغلام الأهوج... سوف أحاول أن أجد وقتاً لتنظيفك ، ولكن بشرط أن تترك حياة الأزقة والأقذار وتعتني بنفسك.

وسكت سيامند.. وعاد شعوره يؤكد له أنه فعلاً مسكين وضعيف تتقاذفه قسوة عمّه وامتنان خالته؛ غير أن هذا الشعور لم ينطبع التعبير عنه في عقله الصغير بكلمات ، ولكنه اتخذ مظهره واضحاً مرة أخرى في عينيه المخضّلتين بالدّمع.





لم يجد سيامند بدءاً من القيام بالعمل الذي كلف به؛ إذ كان ذلك شرطاً أساسياً لأن يأكل ويشرب ويغيش في بيت عمه أو في بيته هو على الصحيح. ومع أنه قام يوفي هذا الشرط بنشاط - إذ كان يحمل كل يوم طعام الظهيرة إلى عمه في الحقل - إلا أنه لم يرتفع في البيت عن مستوى أجير عادي في نظره هو وفي نظر زوجته أيضاً.

بيد أنه لم يستطع أيضاً الانصراف عن هوايته مع أولاد القرية، إذ كانت هي سبيله الوحيد لثلا يظهر بين الأولاد بمظهر المسكين المستضعف كما يدعون، بل كما يشعر هو نفسه بذلك. كان يحاول أن يمزق روح الذل والمسكنة التي أسبغها عليه عمه والتي يخيل إليه أنها بادية على شكله أمام الأولاد، بأن يتمرد عليهم واحداً واحداً ويهز عطفه من حولهم يذكر كلاً منهم بالمرات العديدة التي تغلب فيها عليه وبالأكعاب الكثيرة التي خلصها منه؛ ثم يهز أمامهم جيبه المنتفخ المثقل بالأكعاب ويتحداهم أن يتشجعوا لمنازلته.. وكان كلما أمعن

أحد من عمه أو خالته في إذلاله واحتقاره ، أمعن هو في إشعار الأولاد بالمزيد من عظمته وسيادته عليهم. ! ولقد أخذت تبدأ بينه وبينهم بسبب ذلك مناوشات كانت تصل في كثير من الأحيان إلى حد الاشتباك والضرب ؛ إلا أن أحداً منهم لم يكن يقطع علاقته من اللعب معه ، بسبب ما كان يستفزهم ويتحداهم ، وبسبب أنهم كانوا يطمعون أن يسترجعوا منه ما يكسبه منهم كل يوم.

ولا ريب أن هذه الحالة بمجموعها بدأت تؤلف ضباب الشر في نفسه. ولقد أخذ يستريح إلى هذا الضباب ويستكين له ، إذ كان يشعر أنه الرداء الوحيد الذي من شأنه أن يخفي الذل الذي صبغه به عمه. ولقد أخذ عقله أيضاً - وهو يتفتح - يغذيه بهذا الشر.. إذ بدأ يدرك تدريجياً مدى الظلم العظيم الذي يحيق به.

كان كلما أخذ الطعام إلى عمه في الحقل ، ورأى تلك البساتين والكروم ، عادت به الذكرى إلى أيام حلوة كان يقضيها هناك مع والده الذي لم يعد يتصور شكله إلا كالطيف الضئيل.. وكان يسائل عقله :

أليس كل هذه البساتين والثمار ملك والدي الذي مات ؟ ولكن كيف ينتزعها هذا الرجل الذي لست أدري من أين جاء ؟ وكيف يبعثني عن جناها ويتخذني خادماً أجنبيّاً عنده من أجلها ؟ حقاً لقد كان والدي كما قال ذلك الغلام أغنى أهل القرية ، بيد أن هذا الشرير

المستبد لا يريد أن أعلم ذلك كي يبعدني عن الحق الثابت لي في مال والدي.. إنه يظنّ أنني أجهل هذا الحق ، ولكن حسناً.. سوف أعلم كيف أنني لن أسكت عن حقي..!

وفي الطريق وهو عائد ، كان يستبد به الحماس ، ويصورّ من نفسه شاباً عريضاً طويلاً مفتول الساعد كأعشى شاب من شباب القرية يقتحم على عمه هذا البيت الذي يغتصبه ويسكن فيه ، ثم ينحط عليه ضرباً وركلاً ولكزاً ، ويصرخ في وجهه أن اخرج أيها المغتصب القذر المتناقل فوق ميراث والدي ، بأي حق تشمخ بمال ليس لك فيه من حق أيها الصعلوك المتطفل ؟ أتقول ملكك أيها الكذاب..؟ ومتى كان ذلك وقد كان أبي أغنى أهل القرية وكنت أنت من أرذل أوياشها.. تريد أن تضرب؟ خذ هذه إذاً في صدرك.. وخذ هذه في بطنك.. بطنك الممتلئ من حقي.. وخذ هذه في صدرك.. في عنقك.. في وجهك.. هكذا فلتمت أيها المستكلب النذل..!

ويصل إلى داخل القرية وهو لا يزال منتشياً بخياله المتحمس هذا؛ حتى إذا مرّ بأول جماعة من الأولاد يلعبون بالأكعاب ، راغ إليهم ، وانشغل معهم باللعب ، ودخل معهم في مناقشات وخصومات ، محاولاً أن يفرض بذلك أنه يتمتع بمركز السيادة على جميع أولاد القرية لا بسبب أنه يتغلب عليهم في اللعب فحسب ، بل ولأنه أغنى واحد في القرية أيضاً. غير أنه كان لا يجد السبيل إلى أن يتمتع بذلك

المركز فعلاً ، إذ سرعان ما يردّ عليه أصغر ولد فيهم قائلاً :

- من أجل هذا تظلّ متمتعاً بأرث ثوب بيننا أيها الغني الكبير..!

ولكن سيامند لم يكن يعجزه أن يقول له في لا مبالاة مصطنعة :

- لا يهمني بعد أن أمتلك نصف أراضي هذه القرية أن أترك

الثوب الجديد لك أيها الصغير المغرور.

غير أنه كان يقولها تجلداً فقط ، إذ لا ريب أنه لم يكن يقنع بها رداً

على تلك الكلمة اللاذعة التي من شأنها أن تحيل إحساسه إلى جمر..!

ولقد أسرها سيامند في نفسه ، وكنتم هذا الإحساس الملتهب بين

جوانحه ، إلى أن عاد ذات أمسية إلى البيت ووجد خالته منهمكة في

خياطة ثوب بين يديها. ففاجأها قائلاً :

- لمن تخيطين هذا الثوب؟

- لأخيك طاهر..!

فقال لها وقد استشاط غيظاً :

- ألم يأن أن يخاط لي أنا الآخر ثوب جديد؟!

- لا بدّ أن عمك سيبتاع لك ثوباً جميلاً من سوق القرية بعد

ظهور الموسم..

- أي موسم هذا؟ لقد مضت ثلاثة أعياد متوالية وأنا أتعثر بهذه

المزق البالية ، بينما أنت وعمي وهذا الغلام الجديد تختالون في أجمل

الزينة والثياب. ثم إن أبي مات وهو أغنى رجل في القرية ، فأين ذهب كل هذا الغنى حتى أنتظر المواسم من أجل ثوب جديد ألبسه؟
فقال له وقد انفعلت وتضايقت منه :

- 'مسكين أنته وأبوك أيها الولد.. لقد كانت كل أموال أبيك أراضي قاحلة لا يعرف كيف يفيد منها بسبب خموله وإهماله ، ولولا فضل عمك هذا في تعبهِ واعتنائه بها لضاعت دون أن تنتج أيّ فائدة.
وفي هذه الأثناء دخل زوجها قادماً من العمل..
وفاجأهما قائلاً :

- ما الخبر؟

فأجابته : لا شيء.. غلامك هذا يصّر على طلب ثوب جديد له.
فنظر إلى هيأته وقال وهو يخلع معطفه :

- وما ضرورة الثوب الجديد؟ إن ثوبه هذا أليق ما يكون بلا عيب
الأكعاب..

فقال سيامند :

- ولكن كل الأولاد الذين يلعبون بالأكعاب يرتدون ثياباً أجَدَّ
من ثوبي القدر هذا...!
فهزّ عمه رأسه قائلاً :

- حينما يصبح الثوب الجديد لائقاً بك ، نسعى لشرائه.

فردّ عليه وقد جرّاه الغضب قائلاً :

- ولماذا لا يليق بي.. وأنا ابن الذي تأكل وتلبس من ماله؟

وهنا قام إليه عمه فصفعه صفقة شديدة على فمه وصرخ فيه قائلاً :

- اخرس أيها الشرس اللئيم.. لولا فضلي عليك وعلى أبيك ، لما

وجدت اليوم لقمة تأكلها لتقول إنها من مال أبيك.!

ولكن زوجته قامت تحمي سيامند من عمه قائلة له في رفق :

- لقد وعدته يا شريف أن تشتري له ثوباً في ابتداء الموسم.. إنه

منفعل بسبب الثوب الذي أخيطه لطاهر.. إنه لا يدري ماذا يقول.

فقال وهو يستعيد هدوءه :

- لقد قلت له إنه حينما يصبح لائقاً لثوب جديد فسوف أسعى

لشرائه له.. وما دام على هذا الجانب من اللؤم والبذاءة فهو لا يليق إلا

بأخلق الثياب.

ثم انصرفت عيناه إلى جيب سيامند الممتلئ بالأكعاب ، فمد إليه

يده ونفض كل ما فيه في أرض الغرفة قائلاً :

- إن الجيب الذي يمتلئ بهذه التوافه لا يصلح أن يكون إلا جيباً

لمثل هذا الثوب.!

ثم أخذ الأكعاب جميعاً وقام فرماها إلى أبعد ما تنال يده.

وبات سيامند في تلك الليلة على فراش من الغضا.. لقد رأى

كيف أن طفلاً صغيراً يرضع ، يعيش أعز منه وأكرم ، في داره التي هي ملكه وعلى رزقه الذي هو حقه...!! أما هو.. هو الذي يعلم كل الأولاد أنه يرث أغنى رجل في القرية فليس له إلا أن يتعثر بينهم منذ ثلاث سنوات بثوب واحد أذابه اللبس والقدر..! وإذا عنّ له أن ينبّه أوصيائه إلى رثة حاله ، جاءته الصفعة تغلق فمه!!

وأخذ سيامند يتساءل في حنق وهو يتقلب على فراشه :
ولأفرض أنني هنا خادم لا أملك شيئاً؛ أفلا تجعلني خدمة ثلاث سنوات ذاهباً آيماً كل يوم إلى ذلك الحقل النائي البعيد أحمل لهذا السيد طعامه - مستحقاً لثوب جديد أزهى به ولعناية بجسمي تنجينني من هذه الأوساخ الراسبة فوقه؟!

وفيما كان سيامند منصرفاً إلى أفكاره الشائرة هذه ، كان عمه في الغرفة الأخرى يتسامر مع زوجته ويتبادلان في هناء أطراف أحاديث شائقة ، ويعاودان بين الفينة والأخرى الحديث عن سيامند. وكان شريف يلحّ في كل مرة على زوجته أن لا تركز إلى الرحمة بسيامند وينصحها أن لا تسترسل في اللين معه.

وكان يقول لها : ألم أقل لك منذ سنوات أن هذا الصغير سوف يحاول تنغيص معيشتنا باسم أنه صاحب الميراث والمال؟ إنه سوف يتدرّج - إن تساهلنا معه - إلى ادعاء أننا دخيلان على بيته ومتطفلان

على أمواله..! ولكن الواجب يقضينا أن نصده من الآن ونوقفه عند
حدّه الذي هو فيه. وعلى كلّ فلن يستطيع أياً كان أن يجعل منا خداماً
لأموال أبيه، نتعب عليها الدهر الطويل ثم يعمد فيستلبها منا
لاقتطاف الثمرات والنتائج..!

كانت خديجة تؤكد له أنها هي الأخرى تعرف منه هذه النية
وتدرك فيه هذه الخطورة.. ولكنها لا تحب أن تشهد سيماء التي تثير
الرحمة والإشفاق.. بل إنها لا تقوى على رؤية هذا المنظر لأي
شخص كان. وكانت تقول له في دلال: دعني لا أرى شيئاً من مآسيه
المؤلمة أمام عيني، وشأنك به كما تريد بعد ذلك.

وفي الصباح، حينما خرج سيامند كعادته يلهو مع الأولاد، كان
كلّ همّه أن يعوّض الخسارة التي ألحقها به عمه في المساء حينما انتزع
منه أكعابه التي كان قد كسبها في النهار ورمّاها خارج الدار.. وعبثاً
أخذ يفتش عنها في أطراف الدار.

وحينما حان وقت الغذاء فكر طويلاً في أن يتمرد ويمتنع ذلك
اليوم عن حمل طعام عمه إليه، ولكن الخشية تغلبت عليه..، ثم إنه
أمّل في أن يلبي عمه رغبته إذا أظهر له الطواعية والاستمرار في
الخدمة، فقد كان شديد الشوق إلى أن يرى نفسه وهو يلبس ثوباً
جميلاً يتكامل به تعاظمه على أصحابه الأولاد.

بيد أنه - وهو في طريقه إلى الحقل - مرّ بطائفة من الأولاد يلعبون
الألعاب ، فوقف أمامهم وقد حمل يميناه وعاء الطعام يراقبهم.. ثم ما
لبث أن اندفع إلى المشاركة معهم ليتركهم بعد أن يسجل عليهم غلبة
ساحقة ، فوضع الوعاء في جانب واندمج معهم في اللعب.

وما كاد ينتبه إلى طعام عمه والمهمة التي هو بسبيلها إلا لما رأى ازوار
الشمس وسمع أذان العصر يتعالى من مسجد القرية. فترك الأولاد ،
وحمل الوعاء ، وأخذ طريقه مسرعاً إلى الحقل. ولما وصل إلى الحقل كان
قلبه يخفق بضربات الخوف من عمه.. غير أنه ما لبث أن اطمئن ، عندما
أبصره على بعد نائماً تحت شجرة.. فمضى إليه في خطى متلصصة قاصداً
أن يضع الطعام إلى جانبه ثم يظل عائداً. ولكنه ما إن ترك الوعاء حتى
انقضّ عليه عمه ، فقد كان متناوماً يتربص به بعد أن رآه قادماً من بعيد كي
يتمكن من القبض عليه فيما لو فكر بالهرب من قبضته..

وتناول سوطاً كان قد هياه إلى جانبه ، وراح يهوي على سيامند
بضرب مبرح وقد لاحظ من جيبه الذي عاد مليئاً بالألعاب سبب
تأخره.. ولما أفلت من يده كان كل جزء من جسد سيامند يتنفس
باللهب من شدة الألم! غير أن قلبه في الداخل كان يتنفس بما هو
أفزع.. كان يتقاطر سماً ناقعاً لا يلبث أن ينبث في كل جزء من مشاعره
ونفسه! ولما عادت به قدماء إلى داخل القرية كان حميم الشر قد أطبق

على نفسه ، وكان دخان هذا الحميم يتصاعد ساخناً من عينيه الجاحظتين ومع أنفاسه المستعرة.

وانتهى إلى الدار ، فوقف أمام بابها تراقص أمام عينيه أخيلة الجريمة والشر.. وبعد تفكير لم يدم طويلاً ، اصطنع الهدوء ودخل الدار... وقال لخديجة :

- يقول لك عمي أن اذبحي البقرة التي في حديقة الدار وأسرعني في تقطيعها وطبخ ما أمكن منها ، وهو قادم عشاء مع ضيوف له من أغنياء القرية المجاورة يريدون استئجار بعض أراضينا الفائضة.. ويقول أن استعيني على ذلك بفلاحنا المجاور الحاج سليم.

فأسرعت خديجة إلى الفلاح تستنجد له للمعونة.. وبعد قليل كانت البقرة قد ذبحت ورُكُم معظم لحمها في قدر كبير واتخذت خديجة مجلسها إلى جوار القدر تنفخ في النار وتعاني من دخانه.. أما سيامند فقد أطلق لمشاعره أن تنتعش أمام هذا المنظر اللذيذ الذي كان يحك جرب الشر الذي استشرى في نفسه. وأخذ بين الفينة وأخرى يعمد إلى قطعة خبز يغمسها في مرق اللحم ثم يمضي بها إلى الأولاد أمام الباب يمصّ منها ويأكلها في تعاظم وزهو! فإذا سأله أحدهم :

- ماذا في بيتكم اليوم يا سيامند؟

أجابه في ترفع واقتضاب :

- لدينا ضيوف من أغنياء القرية المجاورة ، ذبحنا لهم بقرة..
فإذا عاد وسأله :

- وفيم مجيئهم إليكم اليوم؟
قال له وهو يتظاهر بالثاقل من تطلعه إلى ما لا يعنيه :
- لاستئجار بعض أراضينا الفائضة.

فإذا لمح في مظهر أحدهم علائم دهشة وإكبار له وهو يلقي إليهم
بهذه المعلومات ، داخلته الشوة وشعر بعزاء كبير تجاه ما ذاقه على يد
عمه من ضروب الذل والألم والهوان.

ولما أقبل ظلام الليل ، وأوشك وصول عمه إلى البيت ، تسلل
واختفى عن الأعين.. وفي لحظة كان لا يبصره فيها أحد انتهر الفرصة
وصعد على السطح ، واتخذ مكانه متمدداً في إحدى جهاته بحيث
يشرف على صحن الدار. ولبث ينتظر هناك مجيء عمه في قلق
وصمت ، ويتسلل فيما هو كذلك بمنظر خالته وهي منهمكة في
إعداد الأطباق وتقطيع اللحم ومراقبة النار.

وبينما هو كذلك إذ رأى باب الدار يفتح ، وإذا بعمه يدخل في
هدوء ، وهو يشد زمام حماره من ورائه...

فأسرعت خديجة إليه في حماس ربة البيت النشيطة تقول :
- أين الضيوف..؟ الطعام قرب أن يكون جاهزاً.

فوقف مبهوراً وقال :

- أي ضيوف..؟

ثم أخذ ينتبه إلى رائحة اللحم الفائحة من الدار.. وإلى القدر الضخم الذي تضيء من تحته ألسنة اللهب... وإلى بقع الدماء وقطع العظام التي تلتصع من حول تلك النار.. ونظر إليها قائلاً في دهشة :

- ما هذا.. ماذا تصنعين يا خديجة؟!

فجمدت خديجة في مكانها وقد أدركت أن سيامند قد كذب عليها.. وزاغ عقلها من هول الموقف ، فلم تحر جواباً.. ولكنها أسرعت فالتفتت حولها تصرخ :

- سيامند.. ويلك يا سيامند أين أنت؟!

وطافت حول الغرف تقول : أين ذهب الملعون..؟!

ثم نظرت إليه في حيرة وقلق شديد تقول :

- لقد قال لي الملعون عن لسانك أن أذبح البقرة ، وأسرع في

طبخ ما أمكن من لحمها لأن ضيوفاً من القرية المجاورة قادمون معك..!

فتطاير الغضب من وجهه وصرخ فيها قائلاً :

- أؤذبح البقرة..؟ كيف تصدّيقه أيتها المجنونة؟! لقد فعلها

المجرم انتقاماً مني... ولكنني سأري هذا الكلب كيف يكون الانتقام..

وكيف أجعله فداء للبقرة التي ذبحها..!

ثم اندفع خارجاً إلى الزقاق، يبحث عن سيامند في كل جهة، بينما اشتدّ على خديجة الأمر وأخذت نظراتها تتبعثر زائغة فيما حولها لا تدري كيف تتصرف وماذا تصنع بعد كل ما وقع..

أما سيامند فقد كان ملتصقاً بالسطح يتدثر بغطاء الظلام وقد اشربّت عنقه إلى أرض الدار، تشرب عيناه الجاحظتان لذة كبرى من منظر عمه وهو يكاد يختنق بالغیظ والكرب.. وكان ينتعش بإطلاق الزفرات الساخنة من صدره حينما يسمع بأذنيه المصغيتين صوت عمه وهو يركض في أطراف الدار وبين الأولاد صارخاً: سيامند.. سيامند أين اختفيت أيها الشيطان، فيقول له الأولاد:

- لقد كان منذ قليل هنا...

ويسترسل أحدهم قائلاً:

- .. وكان يأكل حمأً وهو ينتظر قدوم ضيوفكم الذين

سيستأجرون الأرض..!

وهنا يطبق سيامند يده على فمه كي لا يسمع أحد قهقهته

الشامطة.. بينما يجنّ الغیظ في صدر عمه... ويصيح بالأولاد قائلاً:

- ولكن أين ذهب.. ألا تعلمون أين ذهب؟

فيردّ عليه أحدهم وقد ضاق بصراخه فيهم:

- أوه..! وما الذي يدرينا أين ذهب؟

فبتركهم وهم يتضاحكون :

- يبدو أنه لا ضيوف هناك ولا شيء ... لقد كان يكذب علينا

وعلى عمه...!!

وعاد شريف إلى الدار ولم يجد إلا أن ينفث غيظه في وجه

زوجته ، فقال لها :

- ولكن كيف تصدقين هذا الأحمق... أيتها المجنونة؟ ألم أقل لك

أنه عدو لنا ، يريد الخلاص منا والكيد بنا؟ كيف تذبحين بقرة حلوباً

بكل هذه السهولة ومن غير أي تفكير..؟

فاغتازت خديجة وقالت له :

- وما الذي أدراني أنه كاذب في هذا؟ وماذا كان موقفك مني لو كان

كلامه صحيحاً ثم جئت فلم تجدني صنعت شيئاً بحجة أن سيامند عدو

لك؟ ألم تكن تجعلني مجنونة أكثر ، وتنزل جام غضبك كله علي..؟ ولكن

يبدو أنك لم تستطع العثور على خصمك ، فلا تدري بمن تشفي غيظك..!

فسكت شريف ولم يدر ماذا يقول ، فقد نبهته مقدمات هذه الخصومة

بينه وبين زوجته إلى أنه من الممكن أن تكون أسمى غاية لسيامند من وراء

جرمته هذه أن يوقع بينه وبين زوجته ويحطم روح المودة بينهما.

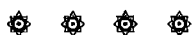
ثم مضى إلى حجرته ليخلع ثياب العمل التي كانت لا تزال

عليه ، وهو يقول :

- ليكن هذا المجرم مختفياً في أي ثقب شاء ، ولكنه سيقع على كل
في شباك هذه الدار ، وسيقع من ثم في قبضة هذه اليد..

وكان سيامند وهو يسمع كلامهما هذا من على السطح ، يتمتع
من ذلك بنشوة رائعة تدغدغ آلام نفسه وتشتت كروبه. وقال في سرّه
وهو يسمع الكلمة الأخيرة التي قالها عمه :

- غير أنك لن تجدني أيها الظالم المعتوه بعد اليوم في شباكك
هذه.. سلاحك انتقامي في كل مكان ، ولكنك لن تجد أمام قبضتك
الشّلاء غير ظليّ!!



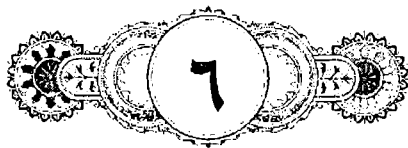
ثم إنه راح يجرّ جسمه في هدوء نحو طرف السطح الذي صعد
منه ، وتدلّى من هناك إلى الأرض ، ثم أخذ طريقه مسرعاً إلى الحقل..
وكان الليل قد اشتد ظلامه إذ ذاك وخفت أرجل السارين عن
الطريق... ولكن شيئاً من ذلك لم يدخل الخوف إلى قلب سيامند ، إذ لم
يكن فيه ما يسع الخوف ، فقد كان ممتلئاً بروح النعمة ومنتشياً بلذة الشر!.
ووصل إلى الحقل والظلام سائد في كل جهة ، والليل شديد
الهدوء لا يسمع في أرجائه إلا وقع أقدامه فقط. فتسور جدار الحقل
المنخفض ، ثم سقط في داخله وراح يتلمس من حوله تلك الغرفة

المتداعية التي تحفظ فيها المحارث وآلات الزراعة وحوائج الحقل ،
حتى إذا اهتدى إليها دخلها وبحث فيها عن بساط كان ينام عمه عليه
في الحقل عادة.. حتى إذا عثر عليه أخرجه ومدّه إلى جانب الغرفة.. ثم
اضطجع عليه.. وبعد فترة من الزمن قضاها في مزيج من الخوف
والتفكير والقلق ، غشيته الغفلة وذهب في سبات عميق.

وفي الصباح استيقظ مع أشعة الشمس الأولى ، وهب واقفاً يدير
عينيه في أطراف الحقل خوفاً من أن يكون عمه قد وصل.. ولكن ما
لبث أن اطمأن إلى أن الوقت لا يزال مبكراً ، وأن عمه ربما لم يكن قد
خرج من البيت بعد.

فعمد إلى البساط وطواه ثم تأبطه ومضى يفتش في أنحاء الحقل
على أي نوع يعثر عليه من الخضار والفواكه وأي ما يؤكل ، حتى إذا
جمع من ذلك ما قدر على حمله وضعه في داخل البساط وجمع
أطرافه من حوله ، ثم حمله على ظهره وأخذ طريقه إلى خارج الحقل..
وهناك استقبل بوجهه شطر الجبل الذي تنبسط حقول القرية كلها في
سفحه ، ومضى ينطلق بخطى حثيثة واسعة.





بات كل من شريف وزوجته معظم تلك الليلة ساهرين يترقبان

مجيء سيامند..

ولما مضى هزيع كبير منه دون أن يأتي أحد، قام شريف من فراشه وألقى معطفه على كتفه وخرج مرة أخرى يبحث عنه في الأزقة ويتجول في معظم جهات القرية علّه يعثر عليه.. حتى إذا بأس، عاد أدراجه إلى الدار وهو يفكر مغتاضاً في الجهة التي اختفى سيامند فيها.

ودخل الدار، فوجد زوجته نائمة.. وضع رأسه هو الآخر لينام ولكن ضيق صدره وقلبه المشحون بالغضب من سيامند لم يتركاه لينعسا وينام كما تنام زوجته هانئة إلى جانبه، لقد كان الشرط الأساسي ليجد النوم إلى عينه سبباً هو أن يعثر على سيامند، فيطلق عليه نيران غيظه وينزل به من الانتقام ما يطفئ حرقه قلبه منه.. ولكن هيهات أن يقع بين يديه، إنه لا يدري أي شيطان اختطفه!!

وقد خطر في باله، وهو يتقلب، أنه قد يكون مختفياً في دار أحد

رفاقه من أولاد الحارة ، ولكنه لم يستسغ أي سبيل لأن يمضي في نصف الليل فيطرق على الناس أبوابهم واحداً واحداً يسألهم عن سيامند . وفيما هو كذلك يفكر ، غفل عن نفسه ، ولم يشعر إلا والضحى يغمر الدار ، وزوجته تردد فوق رأسه :

- شريف.. ألا تنوي الذهاب في هذا اليوم إلى الحقل؟!
ولما أفاق واستوى جالساً ، انحطّت زوجته جالسةً إلى جانبه تهمس له في دهشة :

- ويحك ، إن سيامند لم ينم الليلة هنا ، بل لم يأت إلى الآن...!!
فلوى شريف رأسه ، وقال لها - وكأنما يريد أن يسلي غيظ نفسه منه :
- من يدري؟ ربما خلصنا الله منه وأراحنا من وجهه وشره..
- ولكن أين يمكن أن يذهب..؟ هل له من ملجأ أو مأوى أو قريب في غير هذه الدار؟!

فقال لها وقد ضاق صدره بالحديث عنه :
- وماذا يدريني؟ قد يكون أخذ طريقه إلى جهنم التي يذهب إليها كل الأشقياء أمثاله..

ثم تركها وقام يستعد للذهاب إلى عمله...
ولما هيا أمره ، وأراد أن يخرج إلى الحقل ، أخذ بزمام حماره يقوده وهو يقول لها :

- أظن أننا اليوم ضيوف على المصيبة التي ساقها إلينا سيامند.
 أليس كذلك؟ ... سأعود اليوم باكراً وأتناول غذائي في البيت.
 وأثناء عمله في الحقل، بدأ ينتبه إلى أن ثمة أيادٍ قد عثت فساداً
 بالحقل وسرقت منه كثيراً من الثمار والمزروعات، ولكن سيامند لم
 يكن يخطر في باله، وهو ينتبه إلى الفساد ويتتبع أضرار الحقل..
 غير أنه ما لبث أن تذكر سيامند وأيقن أنه هو الجاني لكل ذلك،
 حينما اكتشف أن البساط الذي كان ينام عليه هو الآخر قد سرق.
 فأخذ يجول ويفتش في بقية الحقول والأراضي والكروم المجاورة علّه
 يعثر عليه أو يقف على جنایات أخرى له، غير أنه لم يعثر على شيء.
 وإذ ذاك غلب على ظنه أنه قد يكون صعد في تلك الجبال المشرفة على
 القرية، فراح يصعد في بعض سفوحها وهو يبعث بنظره محملاً بين
 تلك الصخور وثنایا الوديان، ولكنه سرعان ما قفل عائداً إلى عمله
 بعد أن ضايقه لفح الشمس، وهو يحدث نفسه :
 - فليكن قد ذهب إلى أي جهنم شاء، هذا كل ما كنت أريده :
 أن يغرب عني وجهه ولا أجده يوماً ما ينازعني في مال أو أرض.



أما سيامند، فقد ظل يصعد في تلك الجبال ويتنقل بين صخورها

إلى أن وقع على كهف صغير تظللّه صخرة عظيمة ناتئة.. فألقى هناك حمّله ، ثم وقف ينظر إلى سهول القرية من تحته ويبحث عن مكان حقول والده بينها ، إلى أن اهتدى إليها وانتبه إلى شبح عمه وهو يجول في أطرافها.. فسره كثيراً أن ذلك الكهف يقوم من تلك الحقول مقام برج المراقبة ، فهو يستطيع أن يتبين من مكانه شبح عمه وهو يضرب في الحقل ، ثم يستطيع أن يرى سواد حمّاره من تحته حينما يأخذ طريقه به مساء إلى الدار..!

ثم جلس إلى ظل ذلك الكهف يستريح.. وأخذ يحكم نظرات الشزر نحو شبح عمه البعيد قائلاً :

- اكدر ما شئت أن تكدر في مالي ومال أجدادي أيها المغتصب اللئيم.. فلئن لم أكن قوياً إلى درجة أن أستخلص منك حقي ، فلن تجدني أضعف من أن أفسد عليك كل ما تصلح وأن أريق لك كل ما تسكبه من عرق ومجهود. وذلك أقل ما أستطيع امتلاكه من التصرف بحقي المسلوب.

ثم راح ينتظر المساء ويرقب طريق عودته إلى الدار ، حتى إذا لمح سواده يجري فوق طريق القرية والشمس لا تزال بيضاء مرتفعة ، هبّ من مكانه مبتهجاً واندفع يكرّ متجهاً إلى الحقل ، حتى إذا بلغه ، قفز إلى داخله ، واتجه إلى جميع أشتال الخضر المزروعة فاقتلعها وعمد إلى ما قدر

عليه من أغصان الأشجار ففسخها وكسرها ، ثم جمع ثانية ما قدر على جمعه من كل ما يؤكل وعاد به إلى مكانه في ذلك الكهف.

ولما ضؤل النهار وأخذت الشمس تغيب ، بدأت مخاوف الوحشة تراود قلب سيامند من انفراده في ذلك الشاهق ، وأخذ يدب إليه الفرع من تصوّر بيتوته في ذلك الكهف الموحش.

وفكر في أن ينزل فينام في الحقل ، غير أنه خشي أن يكون عمه قد علم بمنامه هناك الليلة الماضية وظن أنه سيتخذ الحقل مثابة له كل ليلة ، فيداهمه بالليل ويقع في قبضته...

وأخذ يقارن طويلاً بين بقائه في كهفه ذاك يعاني الوحشة ويقاوم الفرع ، في مقابل أن يكون في مأمن من يد عمّه وشرّه ، وبين أن ينام في الحقل ويعاني مخاوف مداهمة عمه له في مقابل أن يكون في مأمن من يد الوحوش وشرها.

غير أن حسابه الشديد لعمّه ، واستكباره عن أن يقع في يده فيدّل له ويتمكن بذلك أن يسترد كل ما قد حصل عليه ضده من انتصارات ، ورغبته القوية في أن يظل متمكناً من أن يلاحق عمه بالانتقام دون أن يستطيع هو القبض عليه - كل ذلك جعله يستبسل ويفضل البقاء في برجه البعيد ذاك!.

ولما أزمع في نفسه أن يظل باقياً هناك ، التفت إلى مكانه في الكهف

وأخذ يمهّد محلّ منامه قبل أن يسود الظلام ، وهو يحدث البلاقع التي من حوله قائلاً :

- ها أنا ذا أخشى من ذلك الذي يسمّي نفسه إنساناً أكثر من خشيتي من الوحوش والضباع !!. إنني أعلم أنه يحقد عليّ منذ سنين ويتمنّى لو يتاح له إهلاكى رغم أنه يعلم أنني مظلوم بيده قد استلب مني كل حقي ومالي؛ أما الوحوش فلا يعينها سوى أن تبحث لها ككل مخلوق عن طعام لها ، وحينما تفترس ضحيتها فإنها لا تبغي من ذلك إرواء حقد عليها بمقدار ما تبغي إنقاذ نفسها من المخمصة والهلاك. ولو أن إنساناً داهمه وحش يريد اقتراضه ، وضع بين يديه الطعام الذي يريد ، لتناول منه الطعام وهمهم له برأسه شاكراً ثم أدبر عنه لا يلوي.

سأضع رأسي هنا في هذا الكهف ، وأحتضن وحشة الظلام فيه ، مرحّباً بأي وحش يمرّ فيجدني نائماً هنا ما دمت قد كويت قلب ذلك الظالم بنار من الانتقام ثم أُفِلْتُ منه.. ولا بدّ أن هذا الوحش الذي يمر فيجد غلاماً منفرداً أعزل غارقاً في نومه هنا سيدرك أنه بائس هرب من قسوة الإنسان إلى رحمة الوحوش ، بدليل أنه سيراني نائماً أعزل غير متوثّب لصيد أو طعان ، ولا بدّ أنه سيتذكر بمنظري هذا منظر أحد أولاده الذين تركهم في جحره أو عرينه فتأخذه الشفقة عليّ فيتركني في نومي ويمضي بحال سبيله.

أما إذا كان جائعاً قد أمحلت هذه الجبال فلم تستطع أن تقدم له أي زاد، حتى ضمر بطنه وامتصه الهزال وتهدده الموت، فلا عليه أن يعثر عليّ ويتخذني زاداً طيباً له، يعيد في أوصاله القوة والحياة، فيحيا لرعاية أولاده وحمايتهم، كي لا يقع أحد منهم مثلي تحت مخلب ظالم يقسو عليه كقسوتي ويذيقهم محنة مثل محنتي.

ثم وضع رأسه لينام، ولكن الهواجس لم تدعه يستطيع أن ينعس فينام... فقد كان يتخيل عند سماع نسمة هواء، دلممة وحش يقبل إليه، وكان قلق نفسه الخائفة يصور أشباح الظلام أمام عينيه في صورة الأطياف المرعبة..

وكان هو فيما بين ذلك يحاول أن يشجع نفسه ويطمئنها، بالإصرار مرة على الاعتقاد بأنه لا يوجد من حوله أي شيء... ومرة أخرى بالقيام والوقوف عند باب الكهف والنظر في الجهات الأربع ليشعر نفسه بأن المكان آمن لا خوف فيه. ثم فكر في أن يقيم صفاً من الحجارة الكبيرة يسدّ به على نفسه باب الكهف وبذلك ينطوي على نفسه آمناً من كل شيء وينام؛ وقام فعلاً بإشراك ذلك، ولكن أصوات الحجارة - وهو يجمعها ويحاول رصفها - ما كاد ينطلق في سكون ذلك الليل ورهبته حتى استبدّ به الخوف وتخيل أن سباع الليل كلها قد استفاقت على تلك الفرقة وانتبهت إلى مكانها؛ فترك الحجارة حيث هي وأسرع فتمدد فوق بساطه وقد بدأت دقات قلبه تتوالى من شدة الخوف.

وهكذا قضاها ليلة طالت عليه ، حتى كاد ظلامها يخنقه ضيقاً به ؛
وخوفاً منه ، وجانبه النوم فلم يستطع أن يغفل عن نفسه وعن مخاوفه
دقيقتين متواليتين. حتى إذا أضاء الصباح ، وسرت إلى الكهف بعض
أشعة الشمس بدأت أعصابه تطمئن وتخدر.. ثم ذهب في سبات عميق.



وفي تلك الساعة كان شريف قد خرج من الدار وبدأ يأخذ طريقه
إلى الحقل...

ولما وصل إليه ورأى ما قد حلّ به من قلع وقطف وفساد ، جن
جنونه وأطبق عليه الغيظ... وتأكد من أن سيامند لن يترك تلك
البساتين والأراضي من شره بعد اليوم ، وقعد يفكر طويلاً ما الذي
يصنع وبأي حيلة يقتنص سيامند ويقبض عليه. ولكن أي فكرة لم
تهدئ باله وتبرد لظى قلبه ، فخرج من الحقل وراح يتجه مرة أخرى
نحو تلك السفوح يفتش فيها عنه ، فقد غلب على ظنه أن يكون
مختفياً في أحد تلك الجوانب بعد أن بات ليلته وسط الحقل..

ولما لم يعثر عليه في تلك السفوح ، بدأ يتسلق الصخور ويعلو في
الجلل... لا ظناً منه بأنه مختف في الشواهد البعيدة ولكن طمعاً بأن يشرف من
هناك على السهول والحقول فيكشف أمام عينيه شبحه ويعرف مكانه..

ولم يزل يصعد وينظر بين كل فينة وأخرى تحته يحملق في نواحي السهول والسفوح وجوانب الحقول كلها، إلى أن وصل إلى بطن الجبل؛ وهناك يئس من العثور عليه...

وربما كان يعثر عليه لو صعد في الجبل قدراً أكثر من ذلك، ولكنه لم يكن يتصور أنه قد نام في ذرى ذلك الجبل وبات بين صحوره! وإنما كان يتصور أنه قد بات في الحقل، ثم خرج منه واختفى في إحدى الجهات قبيل أن يصل هو؛ ولا ريب أن هذه الجهة يجب أن لا تبعد عن الحقل في نظره، إذ لم يأن له بعد أن يتعد كثيراً.

ثم هبط عائداً إلى عمله وهو يفكر أن لا سبيل أقوم من أن يكلف أحد الفلاحين بأن يبيت في الحقل كل ليلة ويتربص بسيامند حتى إذا رآه أطبق عليه وسلمه إياه. ولكن من الذي يستجيب فيهم لهذا التكليف؟ إن كل واحد فيهم له أسرة تنتظره عند كل مساء في البيت. ثم هب أن أحدهم رضي أن ينام في أحد هذه الحقول فمن الذي ينام في بقية الحقول والكروم ويحرس الأراضي الأخرى؟!

ثم عدل عن هذا الرأي وفضل أن يعود هو بعد هزيع من الليل فيداهمه على حين غرة، ولا شك أنه سيعثر عليه نائماً في إحدى الحقول أو بين الكروم. وليس مشكلاً أن يهرب من وجهه إذا داهمه، فكل ما يهمه هو أن يراه ويلمح شبحة، وليهرب بعد ذلك في أي

الجهات يشاء فسيظل يلحقه حتى يقبض عليه.

واستقر رأيه على هذا، وأخذ يترقب المساء في شوق. حتى إذا عاد إلى البيت أنبأ زوجته بالمصيبة الكبرى التي أنزلها سيامند بأحد حقوله، وأخبرها أنه سيسهر إلى أن يمرّ هزيع كبير من الليل ثم يذهب إلى الحقل ليدهم ذلك الشرير ويعود به جثة هامدة إليها....

وتابع حديثه يقول لها: لقد جعل الخبيث من الحقول مثابة له، ينام فيها طوال الليل، حتى إذا أصبح، أفسد ما أمكنه إفساده وقطف من الثمار والخضر ما قدر على حمله، ثم انطلق كالذئب مختفياً في جحر لا يعلم به أحد.

وهكذا ظل شريف ساهراً إلى أن قارب الليل أن ينتصف؛ فقام فارتدى ثيابه وأخذ عصي غليظة بيده، ثم سلك طريقه إلى الحقل.. ولما وصل، دخل إلى الحقل الذي كان قد أفسده سيامند في اليوم السابق، وأشعل بحجر الزناد خرقاً ليستضيء بنارها أمامه، ولكنه لم يعثر في كل جهاته على أحد..

ثم انتقل إلى الحقل المجاور، فلم يعثر فيه أيضاً على أحد، ثم تجاوزه إلى أراضي الفلاحة والكروم وراح يفتش في كل جهاتها ويقذف الحجارة في شتى أنحائها ليستفزه ويدفعه إلى الحركة إن كان مختفياً، غير أنه لم يعثر على شيء!!..

وبعد ساعة من التفتيش والبحث في عباب ذلك الظلام، عاد شريف أدراجه وبه من الكرب ما يكاد يخنقه.

ودخل الدار وقد بدأ صياح الديكة في كل أنحاء القرية، وأخذت تنبعث تباشير الصباح...

كانت زوجته غارقة إذ ذاك في نومها... وكان هو منفوخ الرأس من شدة الكرب والنعاس.. فقعد برهة يفكر ماذا يصنع؟ ولكن الكسل والملل كانا متحكمين به؛ فألقى رأسه حيث هو، وما لبث أن راح يغط في رقاد عميق.





ألف سيامند حياة الوحشة في البادية والجبال ، وتبدد خوفه مع الأيام
من رهبة الوحدة وخيالات الوحوش ، ونسج في نفسه ذلك الإلف طابعاً
من القسوة وقوة من الجرأة وركوناً إلى أجواء الوحشة والانفراد..

واتخذ من ذلك الكهف سكناً يأويه كل ليلة بعد أن أغلق فمه
بالحجارة ولم يدع فيه إلا مقدار كوة صغيرة يدخل منها ويخرج ، فإذا
أوى إليه في المساء أحكم إغلاق تلك الفتحة أيضاً.

كان طعامه في معظم الأحيان ما يجلبه بين كل حين وآخر من
الفواكه والخضر وجميع ما يؤكل من بساتين والده... وكان ينتهز
لذلك فرصة رؤية شبح عمه عائداً في المساء إلى الدار ، حيث يكرّ هو
في تلك الساعة إلى الحقل فيتناول منه ما يريد قبل أن يكون عمه وصل
إلى الدار ، ثم لا يلبث أن يعود ثانية إلى مكمنه. وكم كان سروره
عظيماً حينما عثر ذات أمسية وهو يفتش في جهات الحقل على شباك
لصيد الطيور والعصافير.. فأخذه وعثر فيه على هواية سعيدة له في

بياض كل نهار، واستطاع أن يجعل غذاءه بعد ذلك في كثير من الأحيان لحوم الطيور المتنوعة، يصطادها ثم يضعها فوق ركام من النار يضررها، ثم يتخذ منها وجبته الشهية.

ورغم أن جميع جهود عمه شريف خابت في العثور عليه، واستيأس من إمكان القبض عليه، فقد كان يتصور في كل ساعة من حياته في تلك الجبال أنه ربما يفاجأ بعمه أو بأي دورية تبحث عنه لتسليمه إياه. ولذا فقد كان يتخذ لنفسه من الحيلة ما أمكن، وكان يفكر كلما خطر له هذا على بال، في الطريقة التي يستطيع أن يقاوم بها إذا أدركه ذلك المأزق؛ وكان يتمنى لو ملك سلاحاً آخر غير الحجارة التي سيرجمهم بها إذا تناوشوه من حوله.

غير أنه استطاع أخيراً أن يكتشف سلاحه المفضل في العظام التي كان يعثر عليها في قاع الأودية أو سفوح الجبال؛ فكان يختار منها ما عظم واستصلب، ثم يعمد إليها فيدببها، ويقعد الساعات الطوال يحكها بأطراف الحجارة والصخور الخشنة، حتى إذا أصبحت ذات حدّ مرهف علقها جميعاً على جنبه وجعلها تتدلّى من أطراف جسمه، متخذاً منها السلاح الواقى والدرع الحافظ الأمين.

كان يمسك بقطعة منها، ثم يهوي بها في الهواء يمثل كيف ينازل بها أي حيوان أو شخص يريد الاقتراب منه أو الهجوم عليه، ثم

يهتف في قسوة المصارع القوي :

- "حسبهم هذه العظام النخرة... إنهم أقل شأنًا من أن أبحث لهم عن سلاح من الخناجر المفضضة أو الحراب المذهبة المقبض".
"من يدري فرما كان صاحب هذه القطعة من العظم حيواناً أو وحشاً أعتدي عليه واستلّبت الحياة منه كيداً وظلماً. فها أنا ذا أيها المخلوق المظلوم سأنتقم لك بيدك التي عجزت عن أن تدافع بها".



ومرت على سيامند وهو في هذه الحال أيام وسنون...
لا يستطيع شريف خلالها العثور على سيامند ، ولا يقوى سيامند على الاقتراب من بيوتات القرية. بل لم يعد يجد ما يشوقه إلى العودة إليها أو رؤية أحد ممن فيها؛ فقد ألفت حياة الوحشة والجبال وأصبح يستأنس بمخلواتها ويركن إلى ظلامها ولا يستفزه عواء الوحوش إذ تتعالى في جنباتها..!
وفي أحد الأيام جاء أحد المتشظرين من فتيان القرية يطرق باب شريف طالباً منه أن يتوسط له في خطبة شقيقة زوجته خديجة؛ ولما دخل داره واستقر به المجلس أخذ ينظر الفتى في أطراف الدار وبدأ حديثه مع شريف قائلاً :

- ماذا تم بشأن سيامند..؟ ألم تعثروا عليه؟

- وأين نعثر عليه؟ لقد فتشنا وبجشنا عنه في سائر أطراف القرية
وجميع هذه الحقول والسفوح فلم نقف له على أثر.
فهز رأسه قائلاً :

- لا بدّ إذاً أن وحوشاً قد افترسته أو أن الجوع والعدم قد أهلكاه.
- لا... ليت الأمر كذلك. إن آثار إفساده وسرقاته تظهر في الحقل
بين كل فترة وأخرى من جديد.

فحملق الفتى في وجه شريف وقال متعجباً :

- يعثر بين كل فترة وأخرى في الحقل فساداً ثم لا تستطيعون مع
ذلك أن تعثروا عليه؟

- الحق أننا عجزنا عن ذلك..!

- وماذا.. إن عثرت لكم أنا عليه؟

فأجابه شريف في لهجة اليأس :

- لا أظنك قادراً على ذلك.. ومع هذا فلك إن استطعت إلى ذلك
سبيلاً كل ما تريد..

فقال له الفتى وهو يهز بكتفيه العريضتين :

- لك وحدك أن لا تظن ذلك. أما سائر أهل هذه القرية فيعرف

أنني ما عزمت على أمر إلا وذلته لهذا الساعد وطويته تحت إرادتي..!
ولكن قل لي هل ستفي بما أشرط عليك إن أتيتك به.

فأجابه في إصرار وحزم :

- قلت لك : ستجد كل ما تريده مني حاضراً ما دام ذلك في حدود طاقتي.

- ليس ما أبتغيه منك بالأمر الصعب أو العظيم.. إنني جئت إليك لتتوسط في خطبة أخت زوجتك لي.. وهو أمر كما ترى ليس فيه عليك أية خسارة أو حرج. ولك عندي في مقابل ذلك أن آتيك بسيامند صاغراً : آتيك به ميتاً إن أحببت ، أو أسوقه إليك حياً إن فضلت ذلك.

فابتسم شريف قائلاً :

- هذا الذي تريده سهل ، وما عليك من الآن إلا أن تسرع بالإتيان بسيامند لتجدني قد فرغت من مهمتك وباركت لك بعروسك. غير أنني أريده منك حياً توصله إلى الميدان الفسيح أمام باب الدار ، ولا شأن لك به بعد ذلك.

فتهللت أسارير الفتى ، وخرج من عند شريف وقد صمم على العثور على سيامند مهما كلفه الأمر.

وفكر في أن الحقل هو وحده المحور الذي تدور حوله سياحات سيامند وجولاته ، ما دامت آثاره فيها لا تزال تتجدد كما يقول شريف.. ولذلك فإنه لم يجد خيراً من أن يترصده في أطراف تلك الحقول كل ليلة ويتخذ مأواه الليلي هناك..

أما في النهار فلا شك أنه لا يجوس خلال تلك الجهات ، وإلا لعثر عليه شريف.

غير أنه لم يستطع العثور عليه رغم مضيّ مدة من حراسته للحقول كل ليلة ، وكان أشد ما يذهله أنه يكتشف مع ذلك بين كل حين وآخر آثار سرقاته وإفساده...!! فقد كان سيامند يتنهرز لذلك فرصة اللحظة التي يبصر فيها شبح عمه منصرفاً نحو الدار.. إذ كان الحقل في تلك الساعة يصبح خالياً من شريف الذي غادره إلى الدار ، ومن الفتى الذي لم يحن بعد وقت مجيئه الليلي للحراسة..

ولما يئس الفتى من الفائدة في سبيله ذاك ، بدأ يضع همه في البحث بين شعاف الجبال وبطون الأودية ، لا يعود عنها إلى الدار إلا مع غروب الشمس وعودة الليل.

ولم يطل به سبيله هذا كثيراً...، فإنه لكذلك يبحث ذات يوم بين شعاف الجبل ، إذ فوجئ بشبح مخيف يقف أمام عينيه ناهضاً من خلف صخرة من تلك الصخور. وكانت فجأة مخيفة حقاً لقلب الفتى القوي... فقد بغتته عيناه برجل طويل غاب معظم وجهه في شعر رأسه المتهدل فوق أكتافه وعنقه ، وتبدى معظم جسمه خلال مزق من الخرق وأوراق الشجر ، وتدلت من عنقه وكل من جنبيه قطع ضخمة من العظام تتفرقع كلما اهتز أو مشى...!! وقبل أن ينتبه الفتى من وقع

المفاجأة المخيفة ليتسائل من عسى يكون هذا، ابتدره ذلك الوحش
البشري قائلاً، وقد ملأ كلاً من يديه بقبضة من تلك العظام ووجهها
نحو صدره :

- من أنت.. وماذا تصنع هنا؟

فعاود الفتى الخوف، وخيل إليه سؤال ذلك الوحش أن هذا القفر
من الجبال كلها إنما هو ملك له وحده، وأنه قد ارتكب جناية اقتحام داره
هذه بدون أي إذن أو حق..!! بيد أنه سرعان ما تذكر سيامند وأنه يبحث
عنه، وتساءل في نفسه! لعل هذا هو. فقال له وهو يتحسس مكان
الخنجر من جنبه :

- أنا أبحث عن سيامند.. ألسنت أنت هو؟

فتميز الوحش غيظاً وبرقت عيناه بشعر الغضب، إذ كان هو
سيامند نفسه. وما هو إلا أن انقض انقضاضة الوحش المفترس على
الفتى، ومدّ يداً نحو خناقه، وأمسك باليد الأخرى خنجره الذي
يلتمع في جنبه قائلاً :

- أنا ذا سيامند.. فهل تبحث فيّ عن شيء غير حتفك؟

فتداعت قوى الفتى بين يديه من الخوف، وسارع يستأمنه قائلاً :

- لا يا سيامند، أنا لا أقصد بك أي شر.. لا تظلمني يا سيامند.

فجذب سيامند الخنجر يريد أخذه وقال :

- هات ناولني حديدتك هذه إذاً، إن كنت صادقاً.

ثم ارتدّ عنه سيامند بعد أن أصبح الخنجر في يده، وراح يحملق في الفتى قائلاً:

- فما الذي جاء بك إذاً إلى هنا؟

فمال الفتى برأسه وقد اصطنع اللطف والهدوء، قائلاً:

- أنسيتني يا سيامند...؟ أنسيت صاحبك الذي لعبت معه بالأكعاب دهرًا طويلاً في ميدان القرية؟ ..

فأجابه سيامند، وهو يقلب الخنجر بيده وينظر فيه:

- وهل ترك لي الأسى والظلم شيئاً أذكره من حياتي...؟ إن اليتيم الذي ذقته والظلم الذي قاسيته لم يترك لي صورة من صور النعيم أتذكرها. أنا لا أذكر من قريتك وتاريخها إلا اليوم الذي طلع عليّ فيه ذلك الشرير الذي استبد بكل مالي وحرمني من جميع ملكي وميراثي واتخذني خادماً حقيراً عنده.

فانخط الفتى جالساً في جانب من تلك الصخور، وقال لسيامند:

- دعنا نستريح.. ثم نتكلم.

فدار سيامند من حوله ينظر إليه، كأنه لم يأمنه بعد، ثم جلس مقابله على كثر منه وعاد يقول له:

- إيه... ولكنك لم تذكر لي ما الذي جاء بك إلى هنا.!

ففكر الفتى قليلاً ، ثم نظر إليه قائلاً :

- أتريد أن أقول لك الحق يا سيامند..؟

فهز سيامند رأسه قائلاً : وهل تستطيع أن تقول شيئاً غير ذلك؟

فقال الفتى :

- الحق أنني مظلوم مثلك..! أحببت شقيقة خديجة زوجة شريف

وأحببني ، وكلانا يذيبه ضرام الشوق للآخر.. تقدمت إلى شريف

راجياً أن يتوسط لي في الزواج منها ، فأبى أن ييسر لي ذلك إلا إذا

عثرت عليك وذهبت بك إلى ميدان القرية موثقاً ذليلاً.. إنه ظلم

صارخ لك كما ترى فوق كل ما اعتدى وجار عليك ، وهو ظلم لي

أيضاً واستغلال سافل لئيم..

فنظر إليه سيامند قائلاً وهو لا يزال يقلب الخنجر بيديه :

- ولأجل ذلك فأنت تبحث عني في شعاف الجبال ، كي تعثر

عليّ ثم تسلّمني إلى ظالمي ، ولتروّضني بخنجرك هذا إن تمردت أو

قاومت..؟

فاستدرك الفتى قائلاً وقد بدا في لهجته الاسترحام :

- لا والله يا سيامند ، ما حملت الخنجر لأقاومك به؛ وإنما لأتقي

به الوحوش إن اعترضت سبيلي وهي محتملة الوجود كما تعلم في هذا

المكان. أما أمر تسليمك إلى شريف فأنت تعلم أنني لا أزعم مقدرتي

على ذلك ، بل إن لديّ من الإنسانية ما يحميني من هذا الظلم الدنيء؛
ولكن الذي دعاني إلى البحث عنك هو رغبتني في أن أعرض عليك
مشكلتي هذه التي قضى ظلم الظالمين أن تكون طرفاً فيها.

وتابع حديثه في تزلف يقول :

هل تعلم مدى ما يعانیه قلبي هذا من اللوعة والاحتراق يا
سيامند؟ هل تعلم أن في حشاي ناراً تتقد شوقاً إلى هذه الفتاة التي
ملكّت عليّ عقلي وإحساسي؟ إنها هي الأخرى تحبني كذلك. أتذكر يا
سيامند مدى ولع قلبك بثروتك التي حرموك منها، إن ولعي بهذه
الفتاة التي يريدون أن يحرّموني منها لا يقل عن ولعك بمالك وثروتك.
كلانا مصاب يا سيامند بداء واحد من يد ظالمة واحدة: حرموك ثروتك
التي هي حقك وميراثك، وحرّموني فتاتي التي أحببتها وأحبّنتني!! غير
أنك استغنيت عن ثروتك متسلّياً بالوحشة والانعزاد، أما أنا فلن
أستطيع أن أستغني عن هذه التي ملكتها قلبي وملكّنتي قلبها إلا يوم
يتاح لي أن أستغني عن الحياة..

فأطرق سيامند يفكر ملياً، ثم رفع رأسه قائلاً :

- إنك لمظلوم يا صاحبي؛ ومحال - وأنا الذي تجرّعت عبودية
الظلم وقضمت لجامه - أن أذيق إنساناً مثل الذل الذي رأيت أو
الحرمان الذي عانيت.

وألقى إليه الخنجر وهو يتابع في إصرار وشجاعة :

- اسمع يا صاحبي ، أما أنا فقد أطبق علي الحرمان والشقاء كما ترى. لي شباب ولكنه قد أصبح ملكاً للتوحش والشقاء ، ولي مال طائل ولكنه قدر أن يصبح ملكاً حلاًلاً للظالم الذي لا يرحم؛ ولا أظني إلا مسترسلاً في حظي المنكوب هذا إلى أن يوافيني الأجل في إحدى هذه الشعاف. ولكنك أنت لا تزال تغامر في سبيل عيشك ، ومن حقك أن تسلك كل ما تستطيع من سبيل لنيل حقك. إن من الطبيعي أن أضحي بحياتي التي نضبت من الآمال وأظلمت بليالي الشقاء ، في سبيل حياة لا تزال آمالها مزدهرة وظلال سعادتها وارفة إبقاءً لتلك الآمال والظلال.. بل وربما كان من الواجب أن أضحي بنصف حياة كحياتي التي أنا فيها ، في سبيل حياتين اثنتين جمعتهما الحب وألف بينهما الوداد...

ثم استدرك قائلاً :

- ولكن ما رأيك إذا أمكن أن نعثر على سبيل تصل منه إلى مبتغاك وأحتفظ فيه أنا الآخر بحياتي ؟
فتهلل وجه الفتى قائلاً :

- وهذا ما أبغيه ، ومن أجل البحث في ذلك السبيل أحببت أن أراك.
ففكر سيامند في جد وعمق ، ثم سأله قائلاً :
- ما هو الشرط الذي اشترطه عليك شريف ؟

- الشيء الذي اتفقنا على اشتراطه هو أن أسوقك بهذا الحبل إلى أن أصل بك إلى الميدان الفسيح أمام باب الدار ثم لا شأن لي بك بعد ذلك، وسيتولّى هو حينئذ من أمرك ما يريد..

فقال له سيامند :

- حسناً.. سأعينك على أداءك لهذا الشرط حسب هذا الاتفاق، فإذا وصلنا إلى الميدان وكاد أن يجتمع عليّ الناس فأرسل الحبل من يدك ودعني وشأني. فليس له عليك بعد ذلك من حق، وسواء عليّ أهربت أم وقعت في قبضته... فأنا أَرْضَى أن يتولّى القدر شأني بعد ذلك.

ففاض وجه الفتى بالسرور، وأخذ يكرر له عبارات الشكر والثناء. غير أن سيامند لم يهزّه شيء من إطرائه، وإنما قال له :

- دعك من هذا الكلام الأجوف، فلو كان لي عطف يهتزّ بما تقول لما وجدت لديّ أي سعي إلى قضاء حاجتك هذه. قم، واربطني بحبلك كما تريد ولنأخذ طريقنا إلى القرية قبل أن يغيب النهار.

فأجاب الفتى : ولكن الشرط أن أصل بك إلى الميدان في الوقت الذي يوجد هو هناك، ولا شك أنه الآن في حقله.

فقال له سيامند : فما يمنعك أن تمضي بي إليه في الحقل..

فأجابه بعد تفكير: أخشى إذ ذاك أن يتذرع بمخالفتي للشرط فيما إذا كان لا يريد أن يسهّل أمر زواجي من الفتاة.

فتشاغلا ساعة من الزمان يتحدثان حتى إذا دنا المساء اتجه سيامند مع الفتى نحو القرية ، بعد أن أحكم ربط عنقه بحبل كان معه .
ولما دخلا القرية بدأ الفتى يشد الحبل في عنف كما لو كان يسوقه قسراً . وهمس له سيامند يذكرّه بالاتفاق قائلاً :

- لا تنس ما اتفقنا عليه... لا تنس أن تتركني بمجرد أن نصل إلى الميدان الفسيح..

فأجابه في اقتضاب وهو يهز كتفيه بفخر ، ويستلفت إليه أنظار شباب القرية :

- تعال.. اتبعني ولا تحف.

وتكاثر الناس حول هذا المنظر ، بينما كان يشق الفتى المتشطر طريقه بينهم في زهو وفخر .

ولما لاح أمام سيامند الميدان الفسيح ، ورأى باب دار شريف من بعيد ، أخذ يردد في سمع الفتى قائلاً :

- ها لقد قربنا.. إياك أن تنسى الاتفاق ، إنك لتبدو متناسياً ما اتفقنا عليه أيها الرجل...!!

وصرخ فيه الرجل وقد أشرف على الميدان :

- اخرس أيها الوحش الضاري.. أظننت أنك لن تجد ساعداً يروض شراستك ويؤدب فجورك؟

وهنا أدرك سيامند أن الفتى قد خانه ، وأنه إنما يريد أن يعرض فتوته ويطشه على أهل القرية.. فتضرمت فيه روحه المتوحشة وألهب جوانحه الغيظ ، وزجر بصيحة انخلع لها قلوب المجتمعين هناك ، وأسرع فمدّ يده إلى إحدى العظام المحددة المتدلّية من جنبه فقطع بها الحبل الذي كان مرتبطاً به ، وما هو إلا أن راغ فجأة إلى الحشد الذي من ورائه وهجم عليهم بعظامه تلك صائحاً مزجراً.

فأخذوا يفرون عن يمينه وشماله ومن خلفه ، لا يجرؤ أحد على النظر في هيأته المربعة فضلاً عن محاولة القبض عليه. بينما شق هو سبيله بينهم ، وأخذ طريقه مسرعاً إلى خارج القرية لا يلوي على شيء. كان الرجل ذو الفتوة يقف إذ ذاك في ميدان القرية يجترّ خجله وغيظه. وكان شريف يشدّ بكفه على مقبض الخنجر الذي في وسطه وهو يتصنع اللحاق بسيامند والبحث عنه هنا وهناك ، بينما كان الرعب يملأ قلبه ويمنعه من اللحاق به إلى خارج القرية.





التفت سيامند خلفه وقد أوغل في الحقول وابتعد عن القرية
أميلاً ، ينظر هل هنالك من يلحق به. ورغم أن سواد الليل كان قد بدأ
يشثد ويلفّ معه سواد الأشباح ، فقد استطاع أن يتأكد أن ليس ثمة
على الطريق أية رجل تلحقه من خلفه.

وجلس سيامند فوق رابية يستريح ويلهث..
وأخذ يفكر في ذلك الفتى وخيائته التي كان غنياً عنها لولا أنه
اشتغل أن يسجل لنفسه بطولة مزورة أمام أهل القرية..! وتصور شكله
في النهار وهو يصطنع أمامه مظهر الإنسانية واللفظ ، ويستدرّ
رحمته وعطفه على قلبه الملتاع المظلوم...!!

فقال منه الغيظ ورفع صوته يهتف بخياله المائل أمام عينيه :
- كان بوسعي أيها الخائن الجبان أن أضحي بحياتي الباقية في سبيل
مشكلتك ، ولكنني أشفقت على حياتي التعسة هذه أن تختم بالتلوث
برجسك ، وترفعت عن الموت الذي يأتيني مقدراً بسبيلك. لقد كنت

صادقاً حينما قلت لك إنني على استعداد لإنهاء حياتي هذه في سبيل أن
أخلي الطريق أمام آمال سعادتك التي من حَقك أن تتمتع بجنائها. ولكن
أما وقد تبين أنك لم تكن تفكر في هذه الآمال بمقدار ما تفكر في
استغلال تضحية إنسان أحسن إليك، لتشيد على تضحيته وإنسانيته
مظهر بطولة مزيفة تجعلها لبوساً لجلدك الجرب ووقاءً لنفسك الخائفة
الخائنة - فإني لأضنّ بحياة بعوضة واحدة على حياة ركام من أمثالك.
وتابع، يحدث نفسه، قائلاً:

ولكني أعترف بأنه قد خدعني، خدعني منه أنه إنسان لا يحمل
على ظهره أديم الوحوش ولا يتكشر فمه عن أنيابها. لقد انخدعت
له، كي لا يظن أنني أصبحت وحشاً حينما توحش مظهري ولكي لا
يظن أن عظامي المدلاة هذه إنما هي مخالب وأنياب. ولكن أينما الذي
تبين أنه الوحش؟ لقد تبين أن الإنسانية اللطيفة التي كان يصطنعها إنما
هي ناب أمضى في الافتراس من أنياب الذئب، وأن القلب الرقيق
الذي كان يتغنى ويتلوع بحرقته وعذابه إنما هو مخلب أغلظ وأقسى من
مخالب السباع.

ألا وراحمتاه للوحوش المسكينة كم نظلمها..! نتوجس شراً من
لبدها وأديمها الأغبر، مع أن ذينك فيها - لو علمنا - أقل خطراً وشرّاً
من تلك الرقة العذبة التي تشيع زوراً في جوانب الإنسان. وتفزعنا منها

الأنياب البارزة والمخالب الحادة ، مع أن ذلك فيها - لو علمنا - أقل ما ينبغي أن تتسلح به كي تنجو من شراسة الإنسان الباغية وظلمه العاتي .
لقد هربت بحياتي من كيد الإنسانية الظالمة ، مستغنياً في سبيل التخلص منه عن ثروتي ومالي ؛ ومع ذلك فهذا قد لاحقني حقدّها وجرت ورائي قسوتها إلى رؤوس هذه الجبال وإلى أعماق كهفي المظلم الذي أنفرد فيه..! ولقد أصبحت مثابتي منذ ذاك بين مرابض الوحوش والسباع ، ومع ذلك فما رأيت إلى اليوم وحشاً تربص بحياتي أو ضايقه وجودي .

ذلك لأن الوحوش إنما تسعى دائماً في سبيل الإبقاء على حياتها ، لا تزيد على ذلك بطمع ، ولا تقف دونه بحكم شريعة أو حد . أما الإنسان صاحب القلب الرقيق .. والنفس العاشقة .. فإن له بطناً لا تملؤه ألف فريسة مما يكتفي بواحدة منها أي سبعٍ جائع ؛ وله نفس حاقدة لا يشفي حقدّها بحر من الدماء تتخبط فيه !!

ثم نهض قائماً ، وحملق في السواد البعيد جهة القرية قائلاً :

- ها أنا ذا أبرأ منكم يا بني الإنسان ، وأمضي متقياً شركم بسلاح الوحوش والذئاب ، لا يتبعني أحد منكم بظلم إلا وجدني أعتى سبعٍ في هذه الجبال .

ثم استقبل جهة الجبل ، وأخذ طريقه مسرعاً إلى كهفه . وبات تلك الليلة قلقاً ثائراً مضطرب الأعصاب مما حلّ به في ذلك اليوم... ولم

يوافه النوم إلا بعد أن أتعبه كثرة التقلب وأجهده القلق طويلاً. غير أن الاضطراب كان يلاحقه حتى وهو يغط في نومه، وكانت غفلة عينيه تفيض بالأخيلة والهواجس.

وحينما استيقظ، قام كالمخبول، وتذكر أنه قد رأى في غمرة أحلامه وهواجسه تلك، شبحاً يقف أمامه قائلاً:

ما الذي يحبسك ويحك في هذا الكهف؟ قم فاتركه وانطلق وراء هذا الجبل وسر مستقيماً فسترى في نهايته الراحة والهدوء.

وكأنما نبّهه منامه هذا إلى سرّ القلق في نفسه... فقد سرت عدوى أهل القرية التي هرب منها والتي اسودت أمام عينيه، إلى مكمنه الذي هو فيه، وعادت خلوته فيه مكشوفة وعزلته فاسدة. بل لقد أصبح من الآن معرضاً لغزوات شريف وغيره من أهل القرية. ولا شك أن اضطراب نفسه طوال الليل حول هذا، كثّف له المشكلة في منام وشبح، يحمسه ويدفعه إلى مغادرة ذلك الجبل المتحصّن فيه.

وضاق ذلك الخلاء كله فعلاً على سيامند، وتصور أنه قد أصبح بقعة من داخل القرية المشؤومة التي نسجت له لبوس البؤس والشقاء. وجلس يفكر في رحلة طويلة لا بد من القيام بها. ولم تكن مشكلتها في نظره غير صعوبة أسباب الاقتيات. على أن ذلك لم يحبسه عن مغادرة مثابته تلك فقد كان ضيقه وتبرمه بذلك الجو، أخطر عليه وأشد من

الجوع وأسباب الهلاك.

قام إلى بساطه المفروش تحته في الكهف ، فأحكم لفّه ولمّ أطرافه بعد أن حشا داخله بكل ما كان قد خزنه لديه من مختلف الفواكه الجافة كالجوز واللوز والبندق. ثم ألقاه على عاتقه وانطلق يقصد ذروة الجبل ليواصل سيره مستقيماً من ورائه ، كما حدثه ذلك الشبح في منامه.

كان الجبل الذي يقيم فيه أجرد ، ليس فيه عرق أخضر. ولكنه ما لبث أن اعتلى ذروته وراح يجري في الطريق المستوي على ظهره ، حتى فوجئت عيناه برؤية جبال باسقة أخرى أمامه على البعد ، وقد غاصت إلى القمة في خضرة الأشجار الكثيفة. فأخذ يواصل سيره متجهاً نحوها. بينما بدأ الخوف يراوده من تلك المخاضة التي سيقترحها. إذ لم يكن مطمئناً إلى سهولة المسير بين تلك الغابات وسلامة العبور فيها.

وما إن انتهى إلى قاعدة تلك الجبال ، وبدأ يعلو في سفوحها ، حتى أدركه المساء وبدأ ضباب الليل يتراكم. فزاد ذلك من فزعه من المسير.. ووقف هناك يبحث من حوله عن مكنن يأوي إليه إلى الصباح.. وعبثاً حاول أن يعثر هناك على كهف كالذي كان فيه؛ فقد كانت تلك السفوح خالية من الأثقاب والكهوف اللهم إلا قطعاً من الصخور النائية ، تظلل ما تحتها وتقيه من ريح عاصفة أو مطر. ولم

يجد بدأً في النهاية من الانضواء تحت إحدى تلك الصخور يركن إليها حتى الصباح.

غير أن ذلك المستقر لم يهدئ شيئاً من فزع قلبه ، خصوصاً بعد أن تكامل ظلام الليل في جميع النواحي والأطراف. كان الفصل إذ ذاك أوائل الخريف ، وكانت السماء كلها في تلك الليلة ملبدة بقطع الغيوم. فكان يبدو الليل تحتها أصمّ خاشعاً ، لا تتنفس أية ناحية منه بلمعة من ضياء.

ولم يتخيل فقط أصوات الوحوش والسباع ، بل بدأ يسمعها من الأطراف البعيدة حقيقة..! كانت أصواتاً مختلطة فيها الزجرة والنعيق والعواء.

وكان هو يفكر خلال فزعه ذاك ، فيما ينبغي أن يعمل ، لو داهمه أحد تلك الوحوش في مكمنه.. هل ينبغي أن يستبقه إلى الهجوم عليه وأن يبادر إلى محاولة صرعه وقتله؟ أم الأولى أن يتركه ويستسلم بين يديه لما سيفعل به؟ وأخذ يتصور أن الوحش ربما لا يمسه بسوء إذا رآه غير متوثب لإيذائه؛ إذ من يدري؟ فرمى كان الخوف هو أشد ما يحمل الوحش عادة على الهجوم والفتك؟ فقد اعتاد أن لا يرى الإنسان آتياً هذه الجبال إلا قاصداً إلى الصيد أو النزال. وتخيل سيامند أن أي سبع إذا رآه على حالته التي هو فيها: لائذاً بالصخور ، مرتدياً رداء هذه

الوحشة في المظهر والشعر واللباس ، مستسلماً غير متفاخر بالمقاومة
والفداء ، فلا بدّ أنه سيرقّ له ويدرك أنه بئس ليست فيه شراسة بني
البشر. وأنه ظنّ بالوحوش خيراً فالتجأ إليها وأوى من شرور الناس
إلى رحمته!!..!

وقوي هذا الخيال في نفسه ، وراح يؤكد لعقله صدقه.. وصمم
على أن لا يأتي بأي حركة إذا ما مرّ به وحش أو داهمه في صخرته
تلك.

غير أن ذلك التصميم أيضاً لم يقطع دابر الفزع في نفسه ، فقد كان
كلما انتبه إلى دمدمة الأقدام أو الأصوات المنكرة ، تشق هدوء الليل ،
انتابه القلق والخوف الشديد. وكانت هذه الأصوات كثيرة لا تكاد
تنقطع ، وكان معظمها يأتي من علوّ وينبعث من بين تلك الغابات.

ولما بدا ذيل الفجر في الأفق ، كان سيامند لم ينم بعد. وانتبه إلى
إشراقته كما ينتبه اليائس إلى البشير يفاجئه بعد انتظار طويل خانق.
ومع إشعاع الشمس الأولى التي أخذت تضربه بدفئها بدأت
أعصابه تهدأ.. وأغلقت الغفلة عينيه وفكره ونام.

غير أنه ما لبث أن عاد فاستيقظ ، حينما ارتفعت الشمس واحتدّ
شعاعها وأخذت تلهب جسمه بحرّها الشديد.

فنهض من مكانه وعاد فحزم أمتعته فوق ظهره ، واستقبل بوجهه

قائمة ذلك الجبل الزمردى الأخضر. ولما بدأ يغيب بين أشجار الكسم
والسنديان الشاهقة ، عاد الخوف يراوده من جديد؛ إذ لا بدّ أن كل
تلك الأصوات المزججة التي سمعها بالليل إنما كانت تتصاعد من تلك
الأطراف التي بدأ يخوضها ويجوبها. ثم إنه لم يرَ بعد جبلاً مكسوة
بالأشجار ولم يَألف المسير فيها..

وأخذ يمشي في هدوء متلصص كما لو كان يقتحم داراً أجنبية عنه
فهو يخشى اكتشاف سكانها له وهجومهم عليه.. ولكنه ما لبث أن
تذكر نصيحة الشبح الذي قال له في المنام :

سر مستقيماً وراء هذا الجبل فسترى في نهايته الراحة والهدوء.

فارتدّت الجراءة إلى قلبه ، وعثر في تلك الكلمة على وثيقة تطمئنه
على سلامة مسيره.. وفكر أنه لا بدّ فعلاً سيتغلب على جميع العقبات
أمامه ويستريح بما سيفاجئه من نهاية.. وإلا لبطل أن يكون لنامه
ولكلام ذلك القائل أية حكمة أو سرّ.

وانطلق يغدّ في المسير، لا ينحرف يمنة ولا يسرة؛ وقد أيقظته
جرأته التي ارتدت إليه إلى جمال تلك الغابة وسحرها. ولم يزل يمشي
صاعداً في الجبل الأخضر إلى أن انتهى إلى سمعه صوت وشيش
ضعيف ، فأرهف أذنيه للصوت وأخذ يمشي بخطى هادئة متقياً
الاحتكاك بالأغصان كي لا تحدث صوتاً.. ولكنه ما لبث أن استبشر

مطمئناً إلى أن ذلك الوشيش إنما هو صوت ماء ينحدر من إحدى تلك الجهات؛ ولم يزل يؤم ناحية الصوت حتى لاح أمام عينيه بريق الماء. فأخذ طريقه إليه وقد أدركه الجهد الشديد حتى إذا وصل إلى مكان الماء انحط هناك جالساً وهو يلهث من التعب.

كان ذلك نبأً من الماء البارد الصافي يتفجر من أصل صخرة راسية سوداء، ثم يمضي متخذاً مجراه في أخاديد من بطن ذلك الجبل... وضع سيامند فمه فوق متفجر الماء يعب منه بشراة، كأنما يبحث في زلاله عن الراحة السريعة بعد الإعياء الطويل، أو كأنما يبحث في برده عما يشفي غيظ قلبه على الظالمين الذين قضوا عليه أن يحرم من نعيم بني الإنسان ويقطع المسافة ما بين طفولته وقبره متنقلاً بين الكهوف والأدغال.

ثم فتح لفافة ذلك البساط الذي اتخذ جراباً له. وأخرج بقايا حبات من الجوز والبندق كان قد أخذها من حقول والده أو عمه شريف، وراح يكسرها ثم يأكلها في شراة ونهم. حتى إذا بقيت حبة جوز واحدة، وبضع حبات من البندق؛ أخذها بقبضة يده وراح يفرعها مفكراً..

كان يفكر باليد التي زرعت هذا الجوز واللوز وغيره.. إنها يد والده الذي مات قبل أن يشب هو عن الطوق ويستطيع أن يتذكره جيداً.. ولا بد أنه كان وهو يعرق ويتعب في تعهد حقله وفاكهته هذه - يتصور أنه ينشئ من ذلك نعمة واسعة يتركها لابنه الوحيد كما كانت

تحدثه بذلك عمته المرحومة حليلة.

وأخذ سيامند يشم تلك الحبات بشهيق عميق وقد أغمض عينيه محاولاً أن يتحسس رائحة عرق أبيه وكده في تلك الحبيبات.. ثم راح يحملق فيها وقد وضعها فوق كفه قائلاً :

- لك أن تقرّ عيناً في قبرك اليوم يا أبتاه ، فها أنا ذا أتشرف بهديتك التي تركتها لي من ورائك ، وها أنا ذا أشم في رائحتها آثار عطفك عليّ وحنوّك. إنها هي زادي الذي أتبلغ به في سياحتي هذه التي قدّرت عليّ ، وهي البلغة التي تمسك عليّ القوة والروح. ثم هي اليوم أعز ذكرى من يدك ستبقى أمام عينيّ هاتين ما بقي في محاجرهما النور وما دام في جسمي رمق من الحياة..

سأنظم هذه الحبات في سلك ، ثم أجعلها أجمل قلادة تخلد في عنقي إلى جانب نعمتك ومنتك اللتين أكرمتني بهما..

لا يحزننك يا أبتاه أني لا أملك غير هذه الحبات ، فهي على قلتها ستعيش معي العمر كله.. وهي على بساطتها تعبرّ لي أكمل تعبير عن مدى نعمتك الجليلة التي أكرمتني بها وتركتني لها.

وفيما هو كذلك يفكر ويناجي خيال والده ، فوجئ بمخشخة تجري بين الأغصان عن يمينه ، فنهض قائماً ينظر... ولكنه ما لبث أن اطمئن ، حينما رأى ذيل خنزير من تلك الخنازير التي توجد بكثرة

هناك ، يكرّ نازلاً من أعلى الجبل ، على بعد مرمى حجر منه . وكان من الممكن أن يظنه سبعاً خطيراً لولا أنه كان قد رأى خنزيراً مثله لأول مرة في ميدان القرية كان قد اصطاده بعض الفتيان وأحرق الصبيان به ينظرون إليه .. وكانوا يقولون إذ ذاك بأنه لا يستطيع أن يلوي عنقه ، فحسب الرجل حينما يفاجئه أن يعلو عنه فوق أي صخرة أو مرتفع ، فإنه يتجاوزه ولا يستطيع أن يصل إليه بأي أذى .

غير أن سيامند لم يعد إلى الجلوس بعد ذلك ، بل عاد فحزم بساطه ، وعمد إلى الحبات الباقية من الجوز والبندق فصرها في طرف من ثوبه الممزق ، وأخذ يتابع سيره إلى ذروة الجبل شاقاً طريقه بين لفيف كثيف من الأغصان وجذوع الأشجار .

ولما وصل إلى ذروة الجبل وأصبح الطريق أمامه مستوياً ، كان موضع الشمس من السماء يدل على أن وقت العصر كان داخلاً . وأخذ سيامند يمشي الهوينا وهو يستنشق نسима بارداً عذباً فوق ذلك الشاهق .. كانت أشجار « المسكة » الضخمة المتفرقة فوق ذلك الصعيد تبث في النسيم رائحة عبقّة ، وكان ميسس الرياح لأغصانها المجنّحة المبسوطة يبث مع تلك الرائحة صفيراً هادئاً عذباً ؛ فينبعث فوق تلك الذرى جوٌّ سحري يبعث النشوة والانشراح في القوادر .

وطاب لسيامند أن يجلس إلى ظل إحدى تلك الأشجار، لينفض
عن نفسه الإعياء وينتعش بذلك النسيم العبق. فأتكا إلى إحدى تلك
الجدوع ومضى يمتّع عينيه وأنفه وقلبه بسحر ذلك المكان البديع. وما
هو إلا دقائق.. حتى خدر النسيم مشاعره وأذبل أجفانه، ومضى في
سبات عميق...

ولم ينتبه من صفاء نومه هذا إلا لما شعر بيد تهزّه هزاً ليناً من
كتفه!. فأفاق مدعوراً، ونهض لتوه قائماً!. فقد فوجئت عيناه بإنسان
يقف إلى جانبه يهزّه ويكلّمه..! واستجمع سيامند عقله من شتات
الفرع، لينتبه إلى ذلك الإنسان وهو يقول له :

- لا تخف أيها الصديق.. لا تخف.. أنا أخوك.

وراح ينظر إليه سيامند محاولاً أن يرى في مظهره وشكله تفسيراً
لكلامه ، ولكنه لم يفهم شيئاً. ولم يتذكر أنه كان قد رأى في أي يوم
هذا الرجل.. ونظر إليه قائلاً :

- أنا لا أعرفك.. من أنت؟

- من السهل أن تعرفني من أنا، لو أنك انتبهت جيداً من نومك
ونظرت من حولي إلى هذه الخراف... ولكن اللغز يطبق عليك أنت.
فمن تكون؟!

وهنا تكامل انتباه سيامند ، حينما التفت فرأى الخراف المبتوثة من حوله بين تلك الأشجار ، وحينما عاد فانتبه إلى الجراب المعلق في عنق الرجل وإلى العصي الغليظة التي يمسكها بيده. وتأكد أنه راع يجوب بخرافه في تلك الجهات. فهز رأسه قائلاً :

- أجل.. أجل أنت تجول بأغنامك هنا أليس كذلك؟

- وأنت.. لم تقل لي من أنت ومن أين تجيء؟! وما الذي جعل هياتك على ما أرى؟!

فأخذ يفكر سيامند فيما ينبغي أن يقول له.. وسكت حائراً، ثم عاد يقول له :

- ولكن لماذا أيقظتني... هلاً تركتني بحالي؟
فأشار له إلى مغيب الشمس قائلاً :

- ألا ترى النهار قد ولى، ولم يبق أي وقت للبقاء في هذه الأماكن الخطرة؟ لقد خشيت أن يجسك النوم هنا إلى الليل، فتعرض لأذى الوحوش والسباع.

فأنس سيامند في كلامه رقة صادقة، وسره ذلك، فعاد إلى الجلوس، وقال له :

- أنا شاكر لطفك وإنسانيتك أيها الرجل.... ألا تجلس قليلاً..
فجلس الراعي أمامه القرفصاء، متكئاً على عصاه الطويلة.. وقال :

- ولكن ألا يمكن أن تحدثني من أنت..؟ إن جهلي بك يخيفني
ويقلقني..! إنك لتبدو مفزعاً في هيئتكَ الغربية هذه.

فابتسم سيامند قائلاً :

- ليس فيّ ما يفزع... إنما هو الحرمان وشقاء الدهر فقط. إن ما
يفزعك هو رثة حالي وقذارة جسمي.. ومن حقكم يا بني الإنسان أن
تفزعوا من ذلك لأنكم لم تذوقوه ولم تجدوه.

فاضطرب الراعي من كلامه وقال وقد داهمه مزيد من الخوف :

- أولست أنت أيضاً من بني الإنسان؟!!

- أذكر أنني كنت منهم يوماً ما.. ولكنني طردت أخيراً من الحظيرة

الإنسانية.

فحملق الرجل فيه قائلاً :

- أنا لا أفهم شيئاً مما تقول.

فتبسط سيامند في جلسته، وراح يقصّ على الراعي قصة
حياته منذ وعى على نفسه وعلى الحياة، إلى الساعة التي يجلس إليه
فيها.. ولك أن تتصور أشدّ نشوة اعترته وهو يتحدث لأول مرة أمام
إنسان.. عن مأساته وشقائه، خصوصاً إذا علمت أن الراعي كان
يستمع إلى حديثه بقلب واجف ونفس مشفقة، وينظر إليه بعين تفيض
بدموع الرحمة والألم.

ثم قام إلى بساطه الملفوف وراء ظهره ، فألقاه على عاتقه
واستقبل شطر طريقه قائلاً :

- وهكذا أنا اليوم... مطرود - كما قلت لك - من دنيا الإنسانية
ونعيمها..

فسأله الراعي في هدوء وقد بدا على ملامحه وجوم الحزن والألم :
- وإلى أين تذهب الآن.

- لست أدري ، ولكنني سائر هكذا..!

فأسرع ملتفتاً إلى أغنامه يهشّها وهو يقول :

- إن طريقنا إذاً واحد.. انتظرنني لنذهب معاً.

وراح يجمع خرافه المبعثرة بين الأشجار.. وصاح بها يدفعها
أمامه.. وركض نحو سيامند وهو يقول :

- البلدة نفسها أيضاً في هذا الاتجاه..

فنظر إليه سيامند قائلاً :

- أو نحن هنا على قرب بلدة ما؟!

- أأنت تعلم ذلك..؟ إنها ههنا.. في هذا المنحدر الذي سنهبط

فيه.. بلدة كبيرة وجميلة..

ففكر سيامند.. وسأله قائلاً :

- بلدة كبيرة..؟ ما اسمها؟

- يقولون لها: «موش» أولم تسمع بها؟ سترها بعد دقائق.
فأمال سيامند رأسه قائلاً:

- أنا لم أسمع باسم أي بلدة في هذا الاتجاه سوى بلدة «وان»
كنت أسمع عنها وأنا طفل في القرية.
فقال له الراعي:

- إن «وان» قريبة منها، لا تتجاوز المسافة بينهما ثلاثة أيام
بسير القوافل.

ومضى يحدثه في شفقة قائلاً:

ستجد في بلدتنا إن شاء الله، بعض العزاء عما أصابك.. هل
أستطيع أن أعلم اسمك؟ إن اسمي أنا: نعمان.
فأجابه وهو يمشي إلى جانبه مطرقاً:
- سماني والدي سيامند.

فتابع حديثه يقول:

- ..ربما تجد يا سيامند في هذه البلدة التي ستستقبلك ضيفاً عزيزاً
عليها ما يؤكد لك أن ليس كل بني الإنسان وحوشاً وأفاعي. إنني
أرعى هنا أغنام أمير هذه البلدة. وهو رجل ذو ثروة كبيرة جداً، ولكنه
طيب القلب.. ديين صالح.. ذو عطف وشفقة على الفقراء والمحرومين.
ولا بد أن قصة حياتك هذه إذا أخبر بها ستهزّه هزاً عنيفاً يحمله على

أن يكون لك في مكان أبيك الذي مات قبل أن يتمكن من إسعادك.

والتفت إلى سيامند يتحسس أثر هذا الكلام في وجهه.

كان سيامند يمشي مطرقاً، يسمع ويفكر.. ولما التفت إليه الراعي يتطلع إلى رأيه قال في هدوء متوجع:

- لا يطيب لي أن ألقى نفسي حملاً وعالة على الناس.

- ولكن أستطيع أن تسلم نفسك إلى الجبال والصحاري إلى ما لا نهاية.

وقبل أن يفتح سيامند فمه ليجيبه، لاحت أمامهما أطراف البلدة وأسطح منازلها.. فقال له الراعي:

هذه هي بلدة «موش» أرايت موقعها الجميل هذا؟ إنها تنتشر في سفح هذا الجبل الزمردى... وتستقبل بوجهها أودية سحرية المنظر.

غير أن كلمة «الموت» كان طعمها لا يزال في فم سيامند وعقله.. فلم ينتبه إلى شيء من سحر البلدة وموقعها. وظلّ مطرقاً ساكناً.

وهبطا إلى بيوتات البلدة وقد سدّت الأغنام أمامهما أزقتها الضيقة. وأخذ منظر سيامند المفزع الغريب يلفت إليه أنظار كل من يمرّ به من كبير وصغير، وتبعهما غلمان وشبان يتهامسون ويتساءلون..

وسمع سيامند أحدهم خلفه يقول للآخر:

- أترأه مجنوناً..؟

- لا يبدو كذلك.. أغلب الظن أنه اللص الذي عدا البارحة على منزل المختار. ألا ترى كيف يلتصق به الراعي لا يكاد يفلته؟
- فالتفت سيامند إلى الراعي يبتسم قائلاً :
- أسمع ما يقولون.. طمئنتهم أنني مسروق لا سارق.
- فالتفت الراعي إليهم قائلاً :
- ماذا دهاكم أيها الناس؟ الرجل ضيف مسافر كان قد ضل طريقه إلى البلدة لا أكثر.
- ووصلت الأغنام السائرة أمامهما إلى حظيرة في وسط البلدة، وانطلق الراعي منهما في إدخال الأغنام إلى الحظيرة وهو يقول
- لسيامند :
- انتظرنى قليلاً عندك يا سيامند.
- ثم أغلق عليها الباب واتجه نحو سيامند قائلاً :
- هيا بنا إلى الأمير.
- ولكن سيامند مدّ يده إليه ليردعه قائلاً :
- آمل منك أن تدعني أسير في طريقي إلى النهاية.. لا أريد أن أجعل نفسي عالة على أحد.
- فقال له في إصرار :
- ليس ثمة أي مجال لأن أفارقك.. فإما أن تكون لي صاحباً في

هذه البلدة عند هذا الأمير، وإما أن أكون لك صاحباً في مغامراتك
وشقائك هذا. أتراني أيها الرجل أعيش عالة على الأمير أم أنا أبادله
الطعام والكساء بالعرق والجهد..؟

فقال له سيامند :

- بل أنت تكدح وتتعب ولست بعالة.

- فما يمنعك أن تكون مثلي..؟ إن الأمير بحاجة ماسة إلى أمين

مثلك يخدمه ما بين بيته والبلدة.

وأخذ يمينه يشده قائلاً :

- وإذا شعرت أنك ستعرض لأية منة فالطريق أمامك مفتوح.

فلان له سيامند ومشى معه إلى أن وصلا إلى دار الأمير. فوقف

هناك سيامند وانطلق الراعي يستأذن له.

وبعد قليل عاد إليه قائلاً :

- ادخل.. ولكن ألا تفك عن وسطك هذه العظام القبيحة؟

فدخل سيامند قائلاً وهو يضع وراء الباب بساطه الملفوف :

- ما دمت سأدخل على الأمير، فلا أريده أن يراني إلا على ما

أنا عليه.. واقتحم الدار على حالته تلك.

فمشى أمامه الراعي، إلى القاعة التي يجلس فيها الأمير. وعند

الباب انحاز جانباً وأشار إليه أن يدخل.

وفوجئ الأمير الجالس في صدر القاعة بشبح مخيف ذي شعر أشعث
طويل، تراكت على معالم وجهه وسائر أطرافه أقدار سوداء، وتدلت
من سائر أطراف جسمه عظام ضخمة قبيحة تتفرقع مع مشيه..
فخالط نفس الأمير من ذلك المنظر تقزز وخوف منه وشفقة عليه
وبادره قائلاً:

- اجلس.. اجلس.. ماذا دهاك يا بني حتى فعلت بنفسك هذا.
انخط سيامند في مكانه جالساً، وقبل أن يجيب الأمير على
سؤاله، أخذ يسرح نظره في شكل الأمير وهيأته: كان في منظره كهلاً
لا يبدو أنه يتجاوز الخمسين من العمر، وكانت لحيته الجميلة التي
خالطها الشيب، وجهته الواسعة المشرقة، وعيناه الذابلتان في
خشوع، كل ذلك كان يدلّ على صدق ما وصفه الراعي به من
التقوى والطيبة والرحمة.

ثم التفت سيامند إلى الراعي يشير له أن يجيب الأمير عنه، بيد أنه
ظل ساكناً ولبث الأمير متطلعاً إلى الجواب عن سؤاله.
فلم يجد سيامند بداً من أن يقول له في اختصار:
ماتت والدتي وأنا طفل.. ثم مات والدي أيضاً بعد أن تزوج
بامرأة أخرى، وعادت زوجته فتزوجت هي الأخرى بشاب.. ولم يبق
لي أنا بعد ذلك مجال في الدار.. فهجرت داري التي هي ملكي،

واضطرت إلى أن أنفض يدي حتى عن قوتي الضروري من ميراث والدي.. ولم أجد في أحد من الذين يعلمون حقيقة أمري أي رحمة تدفعهم إلى استخلاص شيء من حقي.. بل أخذوا يتسابقون إلى محاولة الإجهاز على حياتي ابتغاء التزلف والقربى إلى الوارث المغتصب والقريب الجديد..! فاضطرت إلى أن أنفض علاقتي من بني الإنسان، وأن أهرب إلى أي موحشة لا أبصر فيها ظلهم؛ ورأيت أن معاشة السباع الضواري وانقلاب مظهري إلى وحش مثلهم، أسهل بكثير من معاشة الإنسان المستغل لحرمانى وضعفى ومن انقلابي معهم إلى مثل حالتهم وطباعهم.

فانتاب الحزن الشديد فؤاد الأمير الصالح، بيد أنه حاول أن لا يبدو عليه أي مظهر يدلّ على ذلك؛ وابتسم ابتسامة هادئة لم تخل من معنى الشفقة والحزن، وسأله قائلاً:

- وكيف رأيت حياة الوحوش وطبائعهم؟

- يكفي أن الوحوش تقدم بين يدي قسوتها عذراً من الحاجة المعوزة.. أما الإنسان فإنه يقدس القسوة والظلم لذاتهما، وغايته استضعاف الضعيف واتخاذة قوائم مثبتة لعرشه.

فسكت الأمير برهة يفكر.. وقد بدا كما لو كان تلميذاً جاداً تأثر وآمن بنظرية أستاذه الفيلسوف. غير أنه ما لبث أن رفع رأسه إليه،

كأنما فضّل أن يعرض عن فلسفته والتعليق عليها وأن يبحث فيما هو أهم وهو حالته المؤثرة..

قال له :

- والآن.. وقد ساقتك الأقدار مرة أخرى إلى بني الإنسان هل تفضل أن تعيش معنا آمناً مرفهاً كما نعيش نحن ، أم أن نعطيك أي مبلغ من المال أو أي شيء آخر تريده وتعود إلى وطن الآكام الذي كنت فيه ؟

فلم يتردد سيامند في أن يجيب قائلاً :

- لم أجد إلى الآن ما أنكره من حياة الجبال والآكام حتى أفضل عليها غيرها مما جربته وذقت منه الأسى المرير.

وهنا اندفع الأمير إلى محاولة تغيير هذه الفكرة عن الإنسان في نفس

سيامند ، وقال له وقد بدا في وجهه مزيج من التأثير منه والشفقة عليه :

- اسمع يا بني : الإنسان إذا عاش مجرداً من عوامل التهذيب

والترقية فهو نوع من الوحوش والحيوانات تماماً ، بل وهو قطعاً - كما

تقول - يزيد عن الوحوش في الضراوة. بسبب أنه يستعين على ذلك

بما لا تستطيع الوحوش أن تستعين به وهو التفكير والتدبير ، فتأتي

ضراوته أشدّ قسوة وأعظم تأثيراً. ولكن الله عز وجل حينما كرّمه

ورفعه فوق مستوى الحيوانات كلها ، إنما رفعه إلى ذلك بسلم الدين

والإيمان؛ ومن أجل ذلك ألزمه بالتدين إلزاماً وكلفه به تكليفاً جازماً.
فالإنسان يكون أشد أنواع الوحوش عتواً إذا تحلل عن ربة الإيمان
والدين، ولكنه يصبح أيضاً ملكاً رحيماً كريماً إذا أحيا الدين ضميره
وسرى في تفكيره.

وأنت يا بني يبدو أنك وقعت بين أيدي الفئة الأولى من الناس
ولكن الناس كلهم ليسوا كذلك يا بني، بل إنك ما اطلعت إلا على
الصورة الشاذة النادرة فيهم.

فراح يقلب سيامند فيه عينيه وقد بدا أنه لم يدرك تماماً فلسفة الأمير
الغريبة، ولكن نظراته كانت تدل على أنه قد تأثر بلهجة كلامه وأنه شعر
فيها برقة لم يعهدها في الناس الذين علمهم من قبل.. وقال له - :

- الواقع أنني لم أفهم جيداً ما تقول، ولكنني كنت أسمع دائماً
عن الدين ولا أزال أتصور له في ذهني قداسة غامضة!

وعلى كل فالذي أفهمه هو أن دواء أولئك الذين ظلموني إنما هو
القوة.. فلو كنت قوياً قادراً على استحصال حقي في تلك القرية التي
ليس فيها حاكم ولا قانون، إذاً لانقلبوا إلى قطط خائفة.
فأجابه الأمير:

- وهل آمنت أولاً بكلامي، أنك وقعت بين براثن أناس غير
متدينين؟!.. لولا صدق ذلك، لعلموك عن الدين شيئاً ولأفهموك

بعض حقائقه؛ وإذا كنت ستجد بين جنبيك منه ذخيرة مؤنسة لدى وحشتك وآلامك.

صحيح يا بني أنك لو كنت قوياً لأخذت منهم حقك ولكن قوتك لا تداوي ضميرهم الميت وإحساسهم المشلول، أرأيت إلى الذئب الضعيف حينما يستخذي أمام السبع القوي الضاري، هل ينبت ذلك في نفس الذئب نبلاً وضميراً؟! .. إن من غير الممكن أن يكون الناس جميعهم في عهد ما بمستوى واحد من القوة والضعف. فالمشكلة إذاً قائمة، ودواء الدين لا بد منه.

أما القوانين، والحكام والأمراء من أمثالي الذين يتظاهرون محاولين تطبيقها، فاعلم يا بني أنها لا تغني عن الإنسانية شيئاً، وأن الأعراف والقوانين كلها إنما تتحول إلى محالب حادة وأنياب بارزة حينما لا ينبت فيها روح الدين.. روح الخوف من الله الذي يطلع على سويداء الضمير ويحاسب صاحبه على جوهر قصده غير مبال بالشكل واللون، والمظهر الذي قد يكون كله خداعاً ونفاقاً.

تقول الحكام والقوانين..، ولولا مخافة الله عندي يا بني لامتنصت حقوق كل هؤلاء الناس من حولي تحت ستار محكم من الحقوق والقوانين العادلة المشروعة. إن ظل الإيمان بالله إذا امتد في بادية بين جماعة من البدو، كانت تلك الجماعة أقرب إلى النظام

والعدل من دولة واسعة يمتد فوقها ظل القوانين الشكلية المنافقة.

فقال سيامند للأمير متأثراً:

- ولكنني أريد أن أفهم عن الله وعن الدين ما تفهم أنت.. إنني أشعر
فعلاً برهبة في قلبي من هذا الاسم الجليل ، ولكنني لا أدرك سرّه فقد فاتني
أن أتعلم شيئاً من ذلك.

فأجابه الأمير:

- ولكن كيف تتعلم وتدرّك.. وأنت حريص على مفارقتنا
والعودة إلى جبالك وكهوفك؟!

فسكت سيامند قليلاً يفكر ثم قال للأمير في إصرار:

- فأنا مستعد أن أبقى معكم.. ولكن كيف وبأي شكل؟ إنني لا
أرضى أن أكون عبثاً على أحد.
فتهلل وجه الأمير قائلاً:

- لن نتركك تكون عبثاً على أحد.. ألا تستطيع أن تكون حاجباً
لي ، تدخل الناس إليّ حينما يأتون وتمنعهم عني حينما أريد منك
ذلك. وترعى من شؤون البيت ما أشير عليك به؟

- بلى... أستطيع ذلك

- فأنا على كلٍ أحتاج إلى من يقوم لي بهذه المهام ، ولا بدّ أن
ينال على ذلك حقه. فكن أنت ذلك الرجل ، وستجد بيننا كل رعاية

وكرم واحترام.

فلم يتردد سيامند في أن يوافق قائلاً :

- سأمكنك عندكم.. وسأبشر العمل الذي تريد.

وهنا نظر الأمير إلى الراعي الذي كان جالساً في طرف من الغرفة

يسمع الحوار وقال له :

- قم.. فخذهُ وكلف بعض الخدم أن يحلق شعره ويصلح شأنه.

وقبل أن ينهض الراعي إليه ، قال سيامند :

- لا يسوءني أن أظل هكذا ، إن شيئاً من وضعي هذا لا

يضايقني..

فأجابه الأمير :

- ولكنك ستعيش من اليوم مع الإنسان ، فينبغي أن تنسجم معه

في شكله ونظافته.

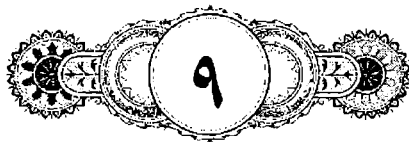
وقبل أن يستدبر سيامند وصاحبه الراعي ذاهبين ، استدرك الأمير

قائلاً :

- ولكنك لم تذكر لي اسمك ؟

فأجابه كلاهما بصوت واحد :

« سيامند »



تغيّر شكل سيامند وتلطّف مظهره.. وبدا شاباً آخر لا يشبه ذلك
الوحش القديم في شيء منه.

وكان في معظم أوقاته يبدو جالساً في المدخل المؤدي إلى القاعة
التي يتخذ فيها الأمير مجلسه.

كان يلبس معطفاً قصيراً مقصب الأطراف، وكان يرتدي من تحته
سراويل عريضة الأكمام، وقد شد وسطه بينهما (بشال) ضخمة أثبت
في جانب منها خنجراً فضياً يلتمع. ولم يعد يبدو عليه من آثار الماضي إلا
حبّات من الجوز واللوز والبندق أصرّ على أن يسلكها في خيط ويعلقها
في عنقه، فكانت تتدلّى فوق صدره كما لو كانت تعاوِذ مقدّسة.

غير أن قسوة الوحشة والبادية لم تفارق مع ذلك وجهه، فكان
يبدو دائماً متجهماً جافّ المظهر والشكل.

ووضع الأمير اهتمامه في أن يهذب طباعه بالتدين، فكان يحدّثه
بين الحين والآخر عن الدين والإيمان، وعلمه الصلوات الخمس،

وكان يصّر في كثير من الأحيان أن يناديه إلى الصلاة معه. غير أنه كان يجد مشقة كبرى في تلقيه بعض آيات القرآن وتفهيّمه معانيها، فقد كان جهله المطبق بالقراءة والكتابة وعدم إلمامه بشيء من اللغة العربية يقف حاجزاً حصيناً دون تفهمه لروح القرآن أو حفظ شيء من آياته. وكان سيامند بدوره يعجب من الأمير وتواضعه ويسأله من أين تعلم هذه اللغة التي لم يجد إلى يومه ذاك من يعلمها أو يتكلم بها؟! فكان يجيبه الأمير في تأثر:

- وهل رأيت الناس إلى اليوم، حتى تجد أنهم لا يعلمون هذه اللغة؟ لقد قضيت كل طفولتك بين جهال أغبياء لا يعلمون غير فلاحه الأرض وحرثها.. إنها يا بني لغة القرآن الذي هو خطاب الله لنا ولكل من يمشي على هذه الأرض من الناس.. بلّغنا إياها نبيّه المرسل العربي القرشي. وكل مؤمن بهذا القرآن ومتبع لهذا النبي لا بد أن يكون على علم بهذه اللغة. لقد كان لي جدّ يا بني دار كثيراً من جهات الأرض أيام معركة «جالدرن» الشهيرة، فكان يقول لنا إنه عاش أحقاباً في بلاد الهند والفرس والترك وغيرهم، ورأى أن جميع تلك الأمم تشترك في الإلمام باللغة العربية إذ إنهم يشتركون في الارتباط بدين الإسلام، وكان أكثر متعلميهم وشيوخهم يتقنون هذه اللغة اتقاناً كاملاً إلى جانب لغتهم الخاصة بهم.

فيقول له سيامند في غيظ بالغ :

- لقد كان من تتمه سوء حظي أنني حرمت حتى من الوسط
الذي يعلمني ديني هذا أو شيئاً من لغته وأحكامه.



ومضت الأيام على ذلك رتيبة مدة سنة كاملة. لم يكن فيها جديد
يسترعي قلب سيامند سوى أنه انتبه إلى فتاة يافعة كانت تمرّ به وهو في
مجلسه القريب من غرفة الأمير ذاهبة آية. فقد كان ينتبه - كلما مرت
به - إلى مشاعر غريبة طارئة في قلبه حيالها، إذ كان قد قطع شطر
عمره السابق دون أن يبصر في إحدى أيامه أنثى.. اللهم إلا تلك
النسوة اللاتي يذكرهن مع أيام طفولته الباكّة من أمثال خديجة ومريته
العمة حليلة..

كانت الفتاة بنت الأمير.. وكانت بيضاء ذات جسم ممتلئ وقوام
رائع، ولم تكن تغفل في يوم من الأيام عن زينتها وعن الاعتناء
بلباسها وشكلها. كانت تلبس ثياباً سابغة طويلة، غير أنها قلّما كانت
تستر مفاتن صدرها ونهديها، وكانت تحبك عقيصة شعرها حبكاً
فاتناً، ثم تستر جانباً منه تحت منديل حريري رقيق موشى بقطع ذهبية
صغيرة..

وما إن مرّ ذلك العام، حتى كان سيامند قد شغفه حبها، وانشغل قلبه بها. وبدأ ينسى بتأثير ذلك أيام المأساة في طفولته، وأخذ يشعر بطعم جديد للحياة لم يكن قد عهدها من قبل.

بيد أن حبه لها كان ذا وقع غريب وغامض على نفسه، فقد فاجأته هذه الانفعالات العاطفية بعد حياة جافة خالية عن أي قطرة من ندى العواطف والأهواء.. ولأجل ذلك فقد كان وقعه شديداً أيضاً على حواسه وقلبه، ولم يعد يدرك كيف يداويه ويعالجه..

وضاق ذرعاً، ولم يجد صبراً على كتمان هذا الشعور الحادّ في نفسه، فأسرع يخبر بذلك صاحبه الراعي :

قال له : ويحك يا نعمان إن بنت الأمير قد سحرتني!.. إنني كلما أبصرها مارة من أمامي، يدفعني شعور متمرد قوي في داخلي إلى أن أنقضّ فأحتضنها وأمطرها بالقبلات!.. ألا تشعر أنت الآخر بذلك؟! وتابع حديثه في إصرار يقول :

- إنني مصمم على أن أتزوجها.. سأكلم في ذلك أباه.. كيف ترى ذلك؟

فنظر إليه نعمان قائلاً في دهشة :

- تتزوج بنت الأمير؟! وكيف يرضى بك الأمير صهراً؟! بل كيف ترضى هي أن تكون زوجاً لها؟! أجننت يا سيامند؟

- وماذا في ذلك...؟ هل من العيب أن أتزوج كما يتزوج الناس؟
ولماذا يصبر الأمير أن أقيم عنده لينعم علي ويكرمني ثم لا يرضى أن
يزوجني بنته؟

فتلطف به نعمان وأخذ يقول له بلهجة المعلم :

- لقد مضت لك سنة كاملة بين الناس في المدينة ، وأنت بعد لم
تتعلم أحوالهم وعاداتهم وطبقاتهم!

أنت يا سيامند خادم مثلي عند الأمير ، بينك وبينه فرق كبير
شاسع في المرتبة والمكانة. ومن العيب أن يصاهر الأمير خادمه الذي
يقف على بابهِ أو راعيه الذي يتعهد مواشيهِ. إذا كان الأمير سيزوج
بنته ، فلن يعطيها لمثلي ومثلك... ولكنه سيزوجها لأمرٍ مثله أو لابن
أمير أو زعيم.. هذه هي عادات الناس ، فإياك أن يفوه فمك بأي سقطة
مما تقول عند الأمير. فستبوء بغضب شديد منه.

فثار سيامند ، وشعر أن في هذا الكلام جرحاً شديداً لكرامته.

وقال للراعي :

- إذا فالأمير يمتنّ علي زاعماً أنه رق لتعاستي فأنقذني من
الهلاك ، فهو لذلك يفرض عليّ الضريبة؛ والضريبة هي أن أكون عبداً
له. ألم أقل له أن والدي كان وجيهاً من وجهاء القرية وثرياً كبيراً
فيها ، وأن الظالمين هم الذين حرموني حقي الموروث في تلك الوجاهة

وذلك الثراء؟ فلماذا لا يعاملني على أساس وضعي الذي هو من حقي؟ ولماذا لا يكون هو عادلاً فيقلب ما أفسده عليّ الظالمون ويعتبرني عنده ابناً لوجيه وزعيم كبير؟! .. ولكن ألم أقل لك من اليوم الأول: دعني وشأني أتم سيري في جبالي وغاباتي التي ألفتها وألفتني، لقد قلت لك أنني لا أحب أن أكون عالة على أحد؟
ففكر الراعي قليلاً ثم قال لسيامند:

- أنت تخطئ يا صاحبي إذا كنت فهمت من كلامي أن الأمير يمتن عليك مترفعاً، ولو كان لك الحق أن تفهم مني ذلك فينبغي أن لا تصدقني.

أنسيت اليوم الذي جلست إليه لأول مرة، كيف راح يقنعك بالبقاء في المدينة وبأن تحسن الظن بالإنسان؟ هل شعرت إذ ذاك أنه يريد أن يستغل طاقتك ليستخدمها أو أن يستبقيك عنده ليمنّ عليك؟
إنه ما تعلق بك كل ذلك التعلق، وما أهمه شأنك، إلا لأنه اعتبرك فعلاً كما تقول: ابناً لوجيه وزعيم وثري.. ابتلته الأقدار بالمآسي. ولولا أنك كذلك في نظره لوجد في غيرك كثيرين ممن يبحثون عن لقمة طعام وجرعة شراب.

ولكن ماذا تنتظر بعد أن يعتبرك كذلك؟
هل تنتظر أن يمنحك ملكاً بقدر ملك والدك الذي أورثك إياه، ثم

يقول لك اذهب فابن عليه وجاهتك التي حرموك منها؟! وأي حق لك عليه يجبره على ذلك؟ لقد استشارك قائلاً: إنه يحتاج إلى حاجب بينه وبين الناس فهل توافق على أن تتولى أنت ذلك، فوافقته على ما أراد.

أما أن يزيد على الشرط الذي اتفقتما عليه أن يزوجك بنته فليس ذلك فرضاً محتماً عليه حتى تغضب منه إذا امتنع. إن من حقه أن يقارن بينك وبين أمير مثله ثم يفضل لبنته الأمير، لا لأنه أشرف أو أسمى منك، ولكن لأنه أقدر منك على إسعاد ابنته ووضعتها في مكانة من الراحة والرفاهية مثل التي تتبوؤها في منزل أبيها.. بل البنت نفسها لن ترضى بغير ذلك، فبأي حق يجبرها والدها على غير ما تريد.

وتابع نعمان حديثه فسأله قائلاً:

- ثم هل أنت قادر على جعل الناس كلهم يعيشون في مستوى واحد، حتى يكون من السهل عليهم أن يتناسبوا ويتمازجوا في ارتجال ومن غير انتقاء وتخير؟

فأسرع سيامند قائلاً:

- نعم... كلهم في مستوى واحد.

- إذاً فأرجو أن لا تغضب إذا قلت لك إنك تناقض نفسك يا سيامند.. لو لم تكن أنت من أشد الناس حباً للتميز والترفع على الآخرين لما أكبرت وتعاضمت وقع المأساة التي ذقتها في حياتك. ولكن

إصرارك على وجود الفرق الشاسع في المستوى بين حقيقة وضعك والوضع الذي أقامك فيه الظالمون أكبر دليل على أنك تتأبى مناسبة من يقال عنهم خدم أو رعاة مثلي.. إن حقيقة غضبك يا سيامند ليس بسبب انقسام الناس إلى طبقات ، ولكنه بسبب أنك لا تجد من يعترف لك في غير تكلف بأنك وجيه وزعيم وثري ، وإن كنت تبدو في المظهر غير ذلك ، إذ يكفي أن أباك كان وجيهاً وزعيماً وثرياً.

غير أنني أعود فأؤكد لك بأن الأمير قد اعترف لك بكل ذلك في غير تكلف. ولكن اعترافه بذلك لا يعني يا سيامند أن يزوجك بنته ، لأن ذلك راجع إلى رضاها هي.

فقال سيامند :

- ولكن ما رأيك إذا كانت هي أيضاً راضية بي؟ إنني احبها ، وهذا يعني على الأغلب أنها هي الأخرى تحبني.

- إذا كان كذلك فلا أظن أن الأمير يمانع ، لأن المسألة كلها إنما تعني البنت وحدها كما قلت لك.

فهز سيامند رأسه قائلاً : سأحاول أن أفهم هذه الناحية منها ، ثم أخبرك بالنتيجة.

ومضت أيام كان يتحين سيامند خلالها أي فرصة لمكالمة بنت الأمير ، وذات يوم صادفها داخلة إلى الدار وهي تحمل بيدها سلّة من

الفواكه ، فتقدم منها قائلاً :

- ألا أحملها عنك يا أميرتي الجميلة؟

فما راعه إلا نظرة شزراء متقرزة توجهت بها إليه وقالت له :

- ابتعد.. ابتعد.. حذار أن تلوث ثيابي بقدارتك وقبحك.

فتراجع مذعوراً ، وقد وقع كلامها من فؤاده موقع الطعنة النجلاء.

وارتدّ حائراً ملجم الفم من وقع ما سمع لا ينبس بينت شفه ، بينما علق بصره الجاحظ بها وهي تنطلق إلى الداخل في عجلة وكبرياء.

وأفاق سيامند من غشيته وذهوله ، ليزداد شعوراً بتأثير الطعنة ووقعها ،

كما ينتهي وقع المخدر من الجرح لبدأ الشعور بوقع الألم والعذاب.

وأخرج المرأة من جيبه ينظر في وجهه أحقاً هو قدر وقبيح!. ولكن

لم ينتبه في وجهه إلى غير مظهر الحدة والاضطراب.

ثم أغمض عينيه في تأثر ، وهوى إلى مقعده المخصص له أمام

الباب ، وجلس يفكر.

وأخذ يحدث نفسه قائلاً : من حقها أن تشعرني أنها لا تحبني

ولا تريدني ، ولكن فيم تحتقرني إلى هذا الحد وتتصورني قذارة

متراكمة في بيت أبيها؟!

إن قدارتني التي تعنيها ، ليست قذارة أو قبحاً في وجهي ، ولكنها

القذارة والقبح في حظي. إنها تجدنني نجساً لأن الأقدار وضعتني هذا

الموضع من دار أبيها. وهي تجدني قذراً لأن أموالي وثرواتي قد تبددت بين أيدي الظالمين فلم يبق لي منها شيء.

إن قذارتي لا يزيلها الماء والصابون، وإنما يزيلها أن أكون سفاكاً نهاباً معتدياً أثيماً. وقذارتي لا تخفيها الأناقة وجمال المنظر، وإنما يخفيها لو أنني انتهرتها ورجمتها بحجارة الذهب والياقوت.

فلا غرو أن تمرّ من أمامي مزهوّة بطهرها وانغماسها في معين الثروة والإمارة. ولا غرو أن تترفع عني تحشّئ أن يدنس طهرها شيء من رشاش يؤسي النجس.

ولكني أحبها... أحبها مجردة عن كل ما تفخر به، أحبها لذاتها وشكلها؛ فلماذا لا تحبني هي الأخرى لذاتي وحقيقتي؟!

إنها تظن أنني متعلق بباب أبيها هذا، تطلّعا إلى لقمة طعام أو قطعة كساء يمنون عليّ بها؛ وهي لا تدري أنني رضيت بالإقامة عندهم استجابة لرغبة والدها الذي أحببت فيه إنسانيته ودينه.. وإنني أستطيع الآن أن أركل رغبته هذه فأغادر هذه الدار بعد أن أعيد إليهم كل ما امتنوا عليّ به، ولكني أحبها.. وهذا وحده هو الذي يمنعني من الرحيل. إن عليّ أن أظلّ منغمساً في قذارتي هذه فلا أبارح موضعي من خدمة هذه الدار في سبيل أن أظلّ أراها في كل ذهاب وإياب.

وأخذ سيامند ينظر إليها - كلما مرت به بعد ذلك - في هدوء

متأثر، فيراها ترمقه بطرف عينيها الجميلتين في تقزز وترفع، ولكنه يشعر أنه تقزز يخفي وراءه نشوة واضحة واغتياباً بما شعرت به من افتتانه بها وانصراف قلبه إلى جمالها.

وضاق سيامند ذرعاً بالأمر مرة أخرى، وأكل الغيظ قلبه، فهرع إلى صاحبه الراعي ثانية يخبره بما حصل.

ولم يزد الراعي في جوابه له على أن قال :

- كنت أتوقع أن تقابلك بهذا من أول الأمر، فذلك شيء طبيعي بالنظر إليها.

ثم تابع حديثه قائلاً :

- وإذا كنت تصغي إلى رأيي الآن، فالذي أراه هو أن لا تشغل قلبك بما لا طائل فيه. وسأجد لك فتاة غيرها في هذه البلدة جميلة ومناسبة لك تتزوجها، وسيعينك الأمير في كل ما تحتاج إليه من أجل ذلك. وتأكد أنك بعد أن تتزوجها ستنسى هذه ولن يهملك شأنها.

فقال له سيامند وقد قطب جبينه :

- ولكن ذلك لا يثأر لكرامتي.. لقد أهانتني إهانة مرة، تضاءل أمامها طعم كل ما أسقتني الأقدار من كدر وأوصاب.

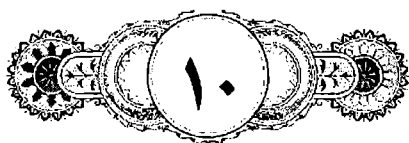
إن عذابي بها الآن لم يعد بسبب حبي لها فقط حتى يداويه حب آخر كما تقول، ولكنه عذاب المرأة التي رفعتها في وجهي تبصرني

بشخصي وكرامتي فيها. لقد أرتني - ويحك - في مرآتها تلك أنني
كتلة أقدار منحطة أمام باب دارها.

أقسم يا نعمان أنني سأحطم أمامها هذه المرآة المزورة الملطخة
بالتعظيم والغرور، وسأريها من هو سيامند، ومن هو الحاج حامد.
فلوى الراعي رأسه وقال له في تواضع :

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً يا صاحبي، فلست مثلي حتى
أرى لك مثل رأيي في نفسي. إنك مصاب بداء البحث عن ميراثك..
ميراثك من المجد والكرامة. إن دمك يلحّ عليك أن لا تهدأ، وهذا
العقد في عنقك يذكرك دائماً بأرضك المسلوبة وكرامتك المنهوبة.
فافعل ما تعينك عليه الأقدار، ولكن لا تنس وأنت تناضل وتبحث
أنك لا تزال دون الأقدار في القوة وأن نبل النبلاء ومجد العظماء إنما
كل ذلك بريق كاذب لسراب مؤقت.





كانت للأمير تجارة واسعة بين بلدته : (موش) ومدينة (وان)، يرسلها حبوباً وفواكه مختلفة، فتعود إليه قيماً نقدية وبضائع. وكان موسم الصدور والورود لهذه التجارة ينشط في فصلي الصيف والخريف. حتى إذا اقبل الشتاء وهبّ صقيعه وأطبقت ثلوجه، خلا الطريق بين البلدتين من التجارة وقوافلها.

وفي خريف ذلك العام، وردت إلى الأمير أخبار من عماله على تجارته في (وان) تقول بأنهم باعوا بضائعهم وهم على أهبة العودة، غير أنهم علموا بأن ثلّة كبيرة من قطاعي الطريق يكمنون في الطريق المعتادة للقوافل. والطريق الوحيد الآخر هو أن يسلكوا في منعرجات الأودية، غير أنه يوجد في بعض تلك البطون سباع شديدة الضراوة والفتك، ولا يمكن الاطمئنان إلى سلامة المسير فيها. فما السبيل الذي يجب أن يسلكوه. فبادر الأمير إلى جمع طائفة من رجاله وأصحابه عنده، يستشيرهم ويبيدي لهم قلقه وحيرته في الموضوع.

وارتأى بعضهم أن تخرج إلى طريق القوافل كوكبة من الفرسان يبحثون عن هؤلاء الأشقياء حتى إذا عثروا عليهم تصدّوا لهم.. ولكن الكثيرين منهم لم يوافقوا على ذلك بحجة صعوبة التفتيش عنهم في تلك المسافة الشاسعة بين البلدين.

وكان سيامند - وهم يتناقشون في هذا الموضوع - يجيء ويذهب بينهم قائماً بواجب الخدمة.. وكانت أذناه متفتحتين لما يدور بينهم من حديث. ويبدو أن البحث أمامه عن الجبال والأودية وطرق القوافل أعاد ذكريات تلك الأماكن إلى خلده، وأثار في نفسه شوقاً إليها.. هذا إلى أنه كان ينتظر - منذ بدأت نيران الحب والتعاطف تأكل قلبه - أية فرصة سانحة ينتهزها ليسجل بها على الأمير وبنته يداً ومنة متفضلة.

فأخذ فكره يراوده على أن يتقدم هو للقيام بهذه المغامرة وإن كانت تبدو خطيرة، بل رأى أنه يجب أن يتقدم إليها بسبب أنها خطيرة، لكي يملأ عيني الأمير وقلبه.. وهكذا تجرأ فتنحى، وسأل الأمير قائلاً - وقد وقف من وراء الجمع - :

- ترى هل تبعد المسافة كثيراً بيننا وبين مدينة وان؟

فالتفت نحوه رجال الأمير، يعجبون، متسائلين عن سبب فضوله ودخوله معهم فيما لا يعنيه. بينما أجابه الأمير بكلمات سريعة كأنها جملة اعتراضية عابرة :

- مقدار ثلاثة أيام تقريباً.

وقبل أن يعود الأمير إلى غمار حديثه مع رجاله ، عاد سيامند إلى السؤال قائلاً :

- إذاً هل لكم أن تعتمدوا عليّ أنا في تخلص الأموال والقضاء على هؤلاء الأشرقياء الذين يتحدثون عنهم؟

وهنا انتبه الجميع إليه ما بين هازئ ومهتم بما يقول.

أما الأمير فنظر إليه وقال له في هدوء وتقدير :

- وكيف تقدر على ذلك يا سيامند؟ وأنت واحد وهم جمع!.

ثم أنت لا تدري في أي شعب أو مكنم يتربصون!..

فأجابه سيامند باسمّاً :

- أليس المكان كله هو طريق القوافل وما حولها؟ إذاً

فالمسألة لا تحيّر ولا تحتاج إلى كثير جرأة أو تفكير.

وظهر الضجيج في المجلس ، وبدأت تصطبدم الآراء المتضاربة فمن

قائل : إنه يهذي ، دعونا منه. ومن قائل : لا ، بل إن الرجل ابن

الكهوف والأودية ، ولعله يعرفهم؛ دعونا نفهم كيف سيصنع.

ولكن الأمير أشار له أن يجلس ، واهتم بكلامه قائلاً :

- أنا لا أجهل يا سيامند أنك قد رضعت من كهوف الجبال

وغياهب الأدغال لبان الجرأة والقوة والوحشة أيضاً.. ولكن ألا تحدثنا

كيف تغلب - وأنت فرد - على ثلة قد تكون كبيرة من قطاعي الطرق الذين لا يبعد أن يكونوا عتاةً متمردين من أشباهك؟! إننا نريد ضماناً يا سيامند..

فجثا سيامند على ركبتيه ورفع رأسه في تعظم قائلاً:

- الضمان يا أميري هو أنني أقدم حياتي للفناء قبل فناء أموالك. ولكن هل لك أن تسأل هؤلاء الذين يهزءون بما أقول: بماذا يضمنون لك إخفاقي الذي يترأى أمام أعينهم؟ أنا لا أريد أن يفعلوا مثلي ويرتهنوا عندك أرواحهم، ولكنني أكتفي بأن يقدموا إليك الخمس فقط من مقدار أموالك هذه يضيفونه إليها حينما أنفذ بها سالمة إليك وتبصرها أعينهم.

ثم أردف يقول في هدوء وبما يشبه التحذير:

- وعلى كل فإن كانت لديكم خطة أضمن فاسلكوها.

ثم سكت، وسكتوا جميعاً، دون أن يحاول أحدهم أن يردّ عليه بشيء. وبدا من الوجوم الذي ساد المجلس، أن جرأته في الحديث قد بعثت شيئاً من الثقة بما يقول في نفوس معظم الحاضرين وكأنما أخذوا يحاولون تفسير معنى التحدي الظاهر في قوله:

«وعلى كل فإن كانت لديكم خطة أضمن فاسلكوها» فلم يفهموا منه إلا أنه يملك سبيلاً خفياً لما يقول، وقد يكون هذا السبيل

هو أنه على صلة ومعرفة بهؤلاء الأشقياء ! ...

ثم اتجه الأمير إلى الجمع قائلاً :

- ما رأيكم بما يقول سيامند ؟

فأجابه الجميع قائلين :

- فليمض متكلاً .. ما دام واثقاً من نفسه كما يقول ؛ ولا شك أن

بعضهم إنما قالها تحدياً وابتغاء التطلع إلى ما سيكون .

فترث الأمير قليلاً يفكر ، ثم قال لسيامند في حزم :

- إذا فامض على بركة الله .. وقل لنا ما الذي تحتاج إليه في

مهمتك .

فقال سيامند :

- أما الآن ، فأحتاج إلى فرس قوية ، وزاد يكفي لبضعة أيام فقط .

ولكنني بعد أن أعود إليك بالأموال سالمة سأحتاج إلى أن تجيبني إلى

كل ما سأطلبه منك .

فرفع الأمير يديه نحو رأسه قائلاً :

- لك عندي كل ما تطلب وتريد .

وفي صباح اليوم الثاني كان قد أخذ سيامند عنوان عمال الأمير في

مدينة وان ، وعمد إلى عظامه التي كانت سلاحه في الجبال فعلقها مرة

أخرى في وسطه . وكان سلاحه الوحيد من دون ذلك خنجره الفضي

الذي كان قد حصل عليه منذ أن أصبح حاجباً للأمير، وقوساً أخذها منه لهذه المهمة.

وبعد أن ودع الأمير، حرص على أن يلقي صاحبه الراعي ويودعه هو أيضاً، ثم امتطى صهوة جواده وقد تنكب القوس متحلياً بالخنجر في وسطه وبالعظام المخيفة في أطرافه، وانطلق في طريق القوافل المتجهة إلى «وان».

وأخذ يفكر، بعد أن تجاوز العمران، في تدبير الخطة!.. أجل، فقد تطوع للقيام بهذه المغامرة ارتجالاً وقبل أن يهئ في فكره الخطة التي سيسلكها!.. وقد سوغ له هذا الارتجال الخطير أنه لم يعد يطيق حرب الاحتقار والإهانة التي كانت تشنها بنت الأمير عليه في الوقت الذي كان قلبه يتضرم بسعار حبها. كان متعطشاً إلى أي فرصة تتيح له القيام بأي بطولة أو مغامرة أمام هذه البنت المغرورة باسم أبيها ليفهمها عظمة شأنه وجلالة قدره وأنه ليس كما تراه هي: حاجباً عادياً من الخدم والحجاب. وقد جعلته كرامته المجروحة وحبّه الملهب يتلقف هذه المغامرة تلقفاً، حتى لو كانت تحمل إليه في ثناياها حتفه.

ومضى الجواد يقفز به في الطريق الضيق المشني بين الأشجار صاعداً مرة وهابطاً أخرى، بينما ينظر هو إلى سلال الكسم الصغيرة المتناثرة في الأرض تحت أشجار الكسم، وقد انصرف به التفكير إلى كيفية تدبير

طريقة للعثور على قطاع الطريق والقضاء عليهم؛ ولكن تفكيره لم يكن يعثر على أي تدبير محكم للأمر. كانت تخطر في باله حيل مختلفة وأبواب من المكر... بيد أنه لم يقتنع بإمكان الاعتماد على أي منها.

ولما لم ينجده تفكيره بشيء، أثر أن يرجئ بحث المشكلة إلى ساعة حدوثها. حيثئذ يمكنه أن يفكر في الحيل التي تخطر على باله ويستعرضها على ضوء الموقف الذي سيكون.

وظل سيامند منطلقاً في طريقه لا يقف، إلى قريب من العصر. وحيثئذ نزل عن جواده ومال به إلى شجرة من الأشجار الكثيرة هناك. فأطلقه ليأكل وليستريح وجلس هو يتناول شيئاً من الطعام. وبعد أن استراح قليلاً قام يجول في تلك الأطراف يستطلع أي أثر أو حس، ولما لم يقف على شيء، أوغل بين الأحرار ماضياً ذات اليمين مرة وجهة اليسار أخرى ليكتشف أي أثر أو خبر عن هؤلاء الأشقياء، ولكنه لم يحسّ بشيء غير وحشة المكان وجموده. حتى إذا انتبه إلى أنه قد ابتعد عن المكان الذي ترك فيه جواده أسرع فعاد أدراجه، وامتطى صهوته يسلك الطريق بحثاً عن أي مكان ينصلح لأن يبيت فيه مع جواده إلى الصباح.

وبات سيامند تلك الليلة... وتابع سيره في صباح اليوم الثاني إلى وقت الظهيرة دون أن يجد حتى حيواناً أو سباعاً!.. وعندما عاد يستريح

ويريح جواده، فقد يفكر بأن هؤلاء الناس قد يكون الخوف والجبن جعلاهم يحذرون من الأوهام الكاذبة والخيالات المزعومة.. فأين قطاع الطريق الساهرون المترقبون لو كانوا موجودين هنا حقاً كما يقولون؟ إن كل واحد منهم جدير به إذ يسمع وقع أقدام فرسه أن يحسبه تاجراً يحمل معه المال الوفير. فأين هجومهم وترصدهم له وها هو قد قطع قريباً من نصف مسافة الطريق إلى «وان»؟! ..

وقبل أن يعود إلى السير في طريقه، عاد مرة أخرى إلى جولته التفتيشية حول تلك الجهات، وهو يفكر أنه حينما يبدأ في السير سيلهب ظهر الجواد ليصل به إلى المدينة في أقرب وقت، وسيقول لتجار الأمير بأنه قد قضى على الأشرقياء ونظف الطريق منهم. وبذلك يسكن خوفهم ويشجعهم على المسير والعودة إلى «موش».

وفيما هو كذلك - وقد أوغل بين الأحراش وأشرف على بعض الأودية هناك - إذا به يسمع وقع أقدام سريعة عن يمينه. وقبل أن يقف لينظر خلال الأشجار إلى أصحاب تلك الأقدام، برز إليه من بينها ثلاثة رجال كالعمالق وقفوا في وجهه بالحراب المسلطة فوق رأسه؛ وقبل أن ينتبه إليهم وهم يسألونه بصوت واحد: من أنت وما معك؟ وجد ثلاثة آخرين وصلوا من وراءهم، ووجد نفسه محاطاً بستة من الفتيان الجسام المسلحين.

وراح يدير عينيه في وجه كل منهم قبل أن يجيبهم.. فما راعه إلا واحد من الثلاثة الآخرين يحدّق في وجهه قائلاً :

- سيامند؟!

ونظر سيامند في وجهه متعجباً.. وإذا بذكره تعود إلى ما قبل سنتين ، ليبصر أمامه الفتى الذي جاء يجرّه إلى القرية ليقدمه مهراً لشريف كي يزوجه من أخت زوجته.

وهنا لمعت الخطة في رأس سيامند..

هنا عثر على الحيلة التي ينبغي أن يقوم بها لمجابهة هؤلاء الستة الأشرار.

ضحك سيامند ضحك المستبشر بلقائه ، وقال :

- ألا تزال جاهداً نفسك في البحث عني يا هذا؟! يبدو أنهم لم يزوجوك من حبيبك بعد.

فهز رأسه في أسف قائلاً :

- لا والله لم يزوجوني منها. ولكني لا أبحث عنك في هذه المرة. وكأنما خشي أن يسأله سيامند عن سبب وجوده في ذلك المكان فأراد أن يقطع عليه السؤال ، وبادره قائلاً في تعجب وهو ينظر إلى هيأته :
- ولكن يبدو أن الجبال والأدغال قد دلّلتك أخيراً يا سيامند. أين شعرك الأشعث وأطمارك البالية؟ ومن أين لك هذا الخنجر الثمين

والقوس المفضض؟

وتابع حديثه يتأمل في العظام التي يشدّ بها وسطه قائلاً:

- وتلك العظام..؟! يبدو أنها الذكرى العزيزة التي لا تبارحك! ..

فأغمض سيامند عينيه وزفر زفرة حادة، شأن المعذب الذي عثر

على صديقه الحميم ليبيّه آلامه وشكواه. وقال:

- لا والله يا صاحبي.. الجبال لم تدللني، ولكنني اضطررت أن

أعود إلى نفسي بأي سبيل لأحميها من الهلاك والتلف في هذه الأدغال.

ثم قطع حديثه ملتفتاً إلى أولئك الآخرين الذين معه، وتوجس

خيفة من أن يشرح آلامه لصديقه أمامهم. وقال مشيراً إليهم:

- ولكنك لم تعرفني على الأخوة.. إنني لا أذكر أنني رأيت

أحداً منهم.

فأجابه مطمئناً:

- هؤلاء أصدقاء لا تعرفهم بعد.. بعضهم من مدينة قريبة من

هنا اسمها «وان» والبعض ينتسبون إلى قرى بجوار قرينتنا نحن. إيه..

فكيف آل بك الأمر إلى هذه الحال؟

وهنا اطمأن سيامند، وأقبل إليه بعد أن أراح نفسه بالاستناد إلى

جذع أقرب شجرة إليه قائلاً:

- لا أكتملك أنني قسوت كثيراً على بني الإنسان بعد أن كذبت

عليّ ونقضت بوعدك، وأسأت الظن بجميعهم. ورأيت أن أياً منهم ليس أهلاً أن يحتمي في حفظ حياته أو ماله بأي شريعة أو قانون، بينما يلتف عليّ ذلك القانون والشرع قبراً يميني تحت ركام الشقاء والحرمان.

وأردف يقول في تأثر عابس شأن من يتجرأ عليّ أن يفضح نفسه :
- ولا أخفيك أنني منذ ذلك الحين أعيش على قطع هذه الطرق واغتصاب ما أقدر عليه من أموال الناس.

والتفت إلى أولئك الآخرين الذين يسمعون كلامه في انتباه قائلاً :
- ولا يهمني أن يقول أحد عني شقي وظالم. فالذين يعلمون قصتي يدركون أنني لم أستوف بعد جزءاً يسيراً مما لي على الناس، من حقوق وظلمات.

فضحك صاحبه، وأخذ ينظر إلى زملائه من حوله قائلاً :
- ولكن ما رأيك بمن استوفى كل ماله على الناس، وزاد؟
ثم أردف يعرف زملاءه على سيامند قائلاً :

- تستطيعون أن تتأكدوا أنكم قد عثرتم على ملك الوحوش والأدغال..! إن هذا الرجل الذي ترون قد ترعرع وكبر وشبّ وهاهو يكاد يشيب بين الكهوف وشعاف الجبال. ويبدو أنه قد ألف الوحوش وألفته وارتبط بالولاء لها بدلاً من الولاء للإنسان.

أترون إلى هذه العظام؟ إنها أسلحته الفتاكة للمقاومة والدفاع.

وتابع حديثه وهو ينظر إلى سيامند ضاحكاً :

- ولقد قطع بأحدها في يوم ما حبلاً ثخيناً ربطته الأقدار في عنقه.

وهنا اطمأن إليه جميع أولئك نفر، وقالوا مستبشرين :

- إذاً فنحن من بعد اليوم سبعة. وليكن رئيسنا هو « ملك

الوحوش » فاصطنع سيامند الدهشة لكلامهم وقال :

- إذاً فأنا لم أفصح نفسي بشيء. هل نحن أولاد مهنة واحدة؟!

فقال له صاحبه :

- أجل يا سيامند. إن كل واحد منا غضب على قومه لسبب ما وألجأ

الحرمان إلى مثل ما ألجئت إليه. ونظراً إلى أن غضبك على بني الإنسان أعم

وأشد وحرمانك أقسى، فلا مانع لدينا أن تتولى قيادتنا من الآن.

فاستبشر سيامند قائلاً :

- إذاً فليس سراً ينبغي كتمه عنكم أن أقول : إنني في هذه الجهات

أنتظر الآن قافلة تجارية علمت أنها ستأتي من « وان ». بيد أنني كنت

حائراً في كيفية العثور عليها. فقد سمعت بأنها لن تسلك طريق القوافل

المعروف، وستغامر بالسير في بطون هذه الأودية لأن أربابها قد أخبروا

عن وجود كمين لهم في الطريق. ولقد كنت إلى ما قبل رؤيتكم أعجب

كيف سمعوا بهذا.. مع أنه لا يوجد هنا إلا راصد واحد هو أنا.

فنظروا بعضهم إلى بعض.. وقال أحدهم إنها القافلة نفسها التي

نتظرها نحن أيضاً، ولكن ألم أقل لكم إن أخبارنا قد تسربت إلى المدينة من ذلك اليوم الذي حدث فيه ما حدث؟..

فقال سيامند وكأنما يشجعهم أن لا يهتموا:

- لا يقلقنكم ذلك.. ما دامت أخبارهم قد تسربت إلينا أيضاً وعلمنا أنهم سيسلكون طريق الوادي، فلن يفلتوا من أيدينا.

ثم نظر فجأة إلى جهة طريق القوافل التي كان قد ترك في ناحية منها جواده متظاهراً أنه انتبه إليه من نسيان وقال:

- ولكن لي جواداً تركته في هذه الجهة على مقربة من الطريق، لأشرف على هذا الوادي عسى أن أجد أثراً لهذه القافلة؛ فليراقب بعضكم هنا وليمض معي بعضكم إلى حيث تركت الجواد لآتي به. فأخذ صاحبه بيد أحد زملائه قائلاً لسيامند:

فلنذهب ثلاثتنا للإتيان بالجواد، وليمكث الباقيون يراقبون الوادي، إلى أن نأتي.

فانطلق الثلاثة جهة الطريق بينما ظل الأربعة يراقبون ما حولهم. والتفت سيامند نحوهم يوصيهم قائلاً:

- على أي فريق منا يشعر بالقافلة أن يطلق صفيراً للفريق الثاني. ثم التفت سيامند يقول لصاحبه:

- أتدري أنني إلى اليوم لا أعرف اسمك؟

- وماذا أصنع إذا كنت تنسى سريعاً أصدقاء طفولتك؟ إن اسمي طاهر. ألا تذكر أي طفل بهذا الاسم كان يلعب معك بالألعاب؟ ثم أشار إلى زميله قائلاً: واسم زميلي هذا قاسم.

ولما وصلوا إلى مكان الجواد، وأخذ سيامند يفك زمامه من الشجرة التي كان مربوطاً بها، قال له صاحبه طاهر ضاحكاً: ومن اغتصبت هذا الجواد الرائع؟

وقبل أن يجيب سيامند، تظاهر بالانتباه إلى حركة سير وأصوات دواب على طريق القوافل القريبة منهم. وبادر فقال لقاسم:

- انطلق.. انزلق يا قاسم إلى فم الطريق بينما أضع الخرج على ظهر الجواد، فإذا رأيت أحداً فنادنا.

وانطلق قاسم يعدو إلى فم الطريق.. حتى إذا ابتعد، غافل سيامند صاحبه وأطبق بيده اليسرى على فمه بينما كانت يده الأخرى تهوي بالخنجر على مذبحه.. ولم يتركه إلا بعد أن هوى على الأرض جثة هامدة. وأسرع فعمد إلى بعض أوراق الشجر فمسح بها الدماء من خنجره وأعادته إلى مكانه من وسطه، ثم انطلق يعدو إلى فم الطريق حيث وجد الآخر واقفاً يرقب. ووقف إلى جانبه وأخذ يرقب معه وينظر في الطريق البعيد قائلاً: ألم تبصر أي شيء؟

وقبل أن يجيبه الرجل، أطبق سيامند بيده على فمه ولوى رأسه

وسرعان ما حَزَّ عنقه بخنجره وتركه هو الآخر جثة هامدة هناك.

ثم انطلق مسرعاً إلى الجانب الآخر المشرف على الوادي حيث الأربعة الباقون. وما إن طلع عليهم من بعيد حتى أخذ يسألهم في لهفة:

- وبحكم ألم تروا أحداً؟

وأجابوه في اهتمام واضح:

- لم نحس بأي شيء.

فأخذ سيامند يتظاهر بالحيرة.. ومضى يتقدم إلى فم الوادي وهو يتطلع يميناً ويساراً، ثم وقف على شفيره فوق صخرة ناتئة يقول:

لقد سمعنا هناك ونحن عند طريق القوافل أصوات حوافر واضحة. وكمن كل منا في طرف من الطريق ينتظر، ولكن الصوت ما لبث أن خف ثم ضاع عنا.

ثم هز رأسه قائلاً:

لا شك أنهم أحسّوا بنا فمالوا عن الطريق إلى هذا الوادي. ولكن كيف لم تحسوا بأي صوت؟! ..

وأخذ يحلق في الوادي السحيق تحت قدمه مرهفاً أذنيه لوشيشه. وهو يقول:

لا بدّ أنهم سيظهرون الآن من هنا.. ليتني لم أدع طاهراً وقاسماً ينتظران هناك من غير فائدة.

وهنا وقف الأربعة إلى جانبه فوق الصخرة الناتئة ينظرون مثله
ويحملقون..

وفيما هم كذلك ، غافلهم سيامند فتأخر عنهم قليلاً. وسدّد
اللكمة بجمع يديه إلى ظهر اثنين منهما ، ثم اشتدّ مقبلاً فدفعهما في
الوادي بأقصى ما فيه من قوّة ، وكرّ عائداً إلى الوراء وقد شهر خنجره
متربصاً بالاثنيين الباقيين.

وغشّى الفرع قلب كل من الاثنيين.. وزاغ عقلهما بين الدهشة لما
حلّ بزмилиهما والبحث عمن فعل ذلك بهما. واستطاع سيامند أن
ينتهزها فرصة فشدّ بيده على فم أحدهما وسرعان ما تركه وقد حزّ
عنقه وهو يتخبط بدمه. أما الأخير فكان قد انتبه إلى المؤامرة وأدرك أنه
الوحيد الذي بقي.. فأشهر حربته الحادّة وهجم بها على سيامند.. ولكن
سيامند ولّى هارباً منه متعرجاً بين جذوع الأشجار ، حتى إذا ابتعد عنه
قليلاً أسرع فاعتلى شجرة من بين الأشجار العظيمة. وتضاءل بين
أغصانها وقد أخرج قوسه من منكبه وهياً في منزعه سهماً. ولم يخف
على الرجل مكانه ، فأسرع يعدو نحو الشجرة وقد شهر حربته التي
يزيد طولها عن ذراعين في يده.

وانتظره سيامند ، حتى إذا دنا من الشجرة ، سدّد السهم نحو

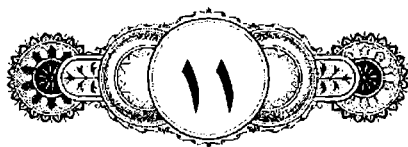
صدره وقذفه به فجاء مثبتاً فيه. ورغم ذلك فقد أخذ الرجل يحاول انتزاع السهم والصعود إليه، بينما عاد سيامند فسدّد إليه سهماً آخر جاء مزروعاً في ألواح صدره.

ثم نزل سيامند من الشجرة يتنفس الصعداء، وقد سرّه أنه أصبح مستحقاً منذ الساعة لكل ما سيطلبه من الأمير وعلى رأس ذلك بنته التي أحرقت قلبه بعذاب الحب والتحقير، كما أصبح أيضاً مالكا لأنوف أولئك الرجال الساخرين منه عند الأمير، وقادراً من الآن أن يدفنها في الرغام.

وبادر فقطع آذان تلك الجثث الأربعة المبعثرة هناك وجمعها في جيبه، ثم انطلق إلى جواده المربوط في مكانه فامتطى صهوته، وتركه يعدو كالريح متجهاً إلى مدينة وان؛ هذا بينما كانت الشمس قد مالت عن وقت العصر وراحت تسري نحو الغروب.

وواصل سيامند السرى في معظم تلك الليلة. وفي ضحى اليوم الثاني كان قد وصل إلى المدينة واهتدى إلى مكان تجار الأمير. وطمأنهم إلى أن الطريق قد أصبح نظيفاً من أي خطر كانوا يحذرونه اللهم إلا من الجثث الملقاة على بعض تلك القوارع وأخرج لهم الآذان المقطوعة يريهم إياها ليزيدهم اطمئناناً.

وفي صباح اليوم التالي كانت قافلة تجارة الأمير تسلك سبيلها إلى (موش)، وكان سيامند يتقدمها على جواده الأشقر منتشياً بالعظمة والكبرياء.



قال سيامند للأمير، وقد جلس من حوله جماعته وصحبه :

- لقد كان في مجلسك هذا يا سيدي - حينما تكفلت بإنقاذ قافلتك سالمة إليك - مستهزئون وساخرون؛ ولا ريب أنهم إن لم يكونوا اليوم أيضاً ساخرين، فهم ولا شك غير مصدقين.. غير مصدقين أنني أنا الذي أنقذت قافلتك من أيدي ستة من الأشقياء العتاة المسلحين.

ثم عمد إلى جيبه وأخرج صرة بعثر ما فيها بين يدي الأمير وإذا هي ثمان أذان آدمية مبتورة، ثم قال للأمير:

- فإلى هؤلاء الساخرين أقدم غداء من لحومهم. فإن هم استطابوه وطلبوا المزيد، أرشدتهم إلى حيث تمتد جثثهم رابية منتفخة، ولا ريب أن السباع لا تزال تاركة منها ما يكفيهم ويشبعهم. فانبرى أحد الجالسين، قائلاً، كأنما يريد أن يتجاوز بسيامند هذا التحدي المقزع:

- ولكننا نريد منك أن تحدثنا عن مغامرتك معهم وكيفية تغلبك عليهم.

فأجاب سيامند :

- إن كنت تريد من ذلك أن تتعلم الشجاعة والرجولة ، فلو حدثتك عن مغامراتي يوماً بأكمله ، ما داوى ذلك الحديث شيئاً مما بك. وإن كنت تريد من ذلك أن تطمئن إلى كذبي أو صدقي فدونك فانطلق إلى حيث تنتظر الجثث لتراها؛ ولن يفوتني أن أرشدك بدقة إلى مكان كل منها. وإن أردت اختصار الطريق فاسأل تجار الأمير، يحدثوك عما رأوا على الطريق.

فقال الأمير كأنما يريد أن يقطع دابر هذه المشادة :

- والآن.. قل لنا عما تطلبه من أجر على بطولتك النادرة.

فأجابه سيامند :

- أما الجواد والأسلحة فليس من المروءة أن أعيدها إليك بعد أن طاب قلبك بتسليمها إلي. إنني أقبلها منك هدية أفتخر بها. وأما ما وراء ذلك مما تريد أن تتكرم به علي فأنا أتقبله أياً كان قدره ، على أن تعود أنت فتقبله مني مهراً ليد ابتك « هاجر » ! ..

وكانما كانت هذه الكلمة من سيامند قفلاً ختم على أفواه جميع الحاضرين إلى بضع دقائق... وساد الوجوم أنحاء المجلس وظهر على

وجه الأمير الذي كان مدار نظرات الجالسين علائم التفكير، فما كان يتوقع أن يطمح حاجبه الشجاع إلى مثل هذا..

ثم تكلم الأمير قائلاً:

- أنا عند وعدي لك في كل ما أملكه وأستقلّ في التصرف به. أما ابنتي فهي ملك نفسها ورهن إرادتها. ولست من أولئك الذين يتجاوزون حكم الشريعة والدين، فيعتبرون بناتهم سلعة تمتلكها أيديهم، يتصرفون بها حسب إرادتهم، ويتوصلون بها إلى أغراضهم.. ولا يكثرثون بأي رغبة منهن أو إرادة، لأنهن في حسابهم مال.. والمال لا تكون له أية رغبة أو إرادة. ولكني يا سيامند أستطيع أن أسألها عن رأيها فيك وفي رغبتك هذه، فإن أجابت فهي لك من دون الناس جميعاً وليس لي أي اعتراض بشيء، وإلا فلست أملك أي سبيل لإجبارها على ما لا تريد.

وسكت المجلس.. وسكت سيامند أيضاً.. وبعد قليل قال للأمير

بلهجة الياثس:

- ليس لي على ما تقول أي اعتراض.

وخرج سيامند من عند الأمير مستيئساً من إدراك غايته التي اقتحم تلك المخاطر كلها من أجلها.. وأخذ يفكر في أن الأمير قد استطاع أن يكون لبقاً في التخلص من طلبه هذا، فقد تملّص منه مع

تمسكه بمظهره الذي يحرص على أن يبدو دائماً فيه من سيما التدبّين والتقوى ، ومن مشاعر الود والتقدير له.

ولكن الذي فات سيامند أن يعلمه ، هو أن بنت الأمير لم تعد تحتقره كشأنها معه سابقاً. لقد كان يعتقد أنها تكرهه ، وهيهات أن يتغير الطبع أو الفؤاد. غير أن الواقع هو أنها تعيش دائماً بين نسيمات الرفاهية وسعادة الثروة والمال... إنها تتعشق كل صورة يترأى فيها شيء من ذلك ، وتتقزز من كل منظر يوحي بالفقر وينفث بشؤم الحزن والنكبات. ولقد كان سيامند في أول عهده بالأمير مظهراً للفقر الذي أشفق عليه الأمير بسببه ، وشكلاً للنكبة التي داراها الأمير بظله وحماه.. فكان ذلك مبعث تقزز في نفس الأميرة « هاجر » وسبب تشاؤمها منه إن هو احتك بها أو دنا منها.

ولكن الذي اتضح اليوم ، هو أن مقدم سيامند جاء بالخير لبيت الأمير ، وأنه يتمتع بشجاعة نادرة كثيراً ما يفتقر إلى مثلها بيوت الزعماء والأمرء ، ويكفي هذا سبباً في أن تتغير نظرة بنت الأمير إلى هذا الفارس الذي خلّص أموال أبيها من كارثة كانت وشيكة الوقوع. وقد بدأ يدرك سيامند هذا التحول فيها ، حينما عادت تمرّ به وهو في مكانه الأول من الدار : الحجابة والخدمة.. فقد كانت تحرص على أن تحييه بابتسامة وادعة وإن كانت مترفعة.

وحينما رأت الراعي نعمان مرة يركب فرس سيامند ويتجول عليه في أطراف قصر الأمير، جاءت تقول له :

- لماذا تدع فرسك يركب عليها عامة الناس أيها الفارس المقدام؟! فأجابها في هدوء متكبر:

- صديقي نعمان ليس من عامة الناس.. إنه من أحب الناس إليّ. فسكتت، وانطلقت تبتسم كأنما تذكره أو تعلمه بأن هناك من هو أحب من نعمان إلى قلبه...



لم يطل سوء ظن سيامند بالأمير كثيراً.. فسرعان ما عاد فطلبه إليه، وخلا به في مجلسه، وقال له :

- لم أكن نسيت يا بني طلبك الذي صارحتني به. إن بنتي راضية بك ومعجبة ببطولتك وشجاعتك الخارقة. وهي تشكر معي لك مغامرتك الخطيرة في سبيل إنقاذ قافلتنا وأموالنا من أيدي الأشرقياء... ومن حقك أن تعلم منذ اليوم أنه لا مانع لدي من أن أزوّجك من بنتي هذه متى شئت.

فأبدى سيامند سروره بما قال الأمير، وشكر له إخلاصه واهتمامه بطلبه ومراده، وقال :

- لا مانع لدي أن يكون ذلك في أقرب حين.

وما هي إلا أيام قليلة مرت ، حتى تسامع أهل البلدة نبأ خطبة سيامند لبنت الأمير ، وعلموا أنها مسماة له ، وبدأ اسم سيامند يستحلّ في أذانهم مكان أي فرد من أفراد أسرة الأمير. ولم يداخل أحداً العجب من ذلك ، فقد كانوا يتوقعون أن يكرمه الأمير إكراماً جليلاً ويدنيه منه بسبب شجاعته الحارقة التي أنقذت قافلة أمواله.

ولكن الأمر الذي لفت أنظارهم وجعلهم يعجبون ، هو بقاءه في المنزلة التي وضعه الأمير فيها منذ أن جاءه من البدو! ..

والواقع أنه أصرّ على أن لا يرتفع عنها رغم أنه سيصبح عما قليل نسيباً للأمير.

ولم يبال الأمير الصالح بذلك في أول الأمر ، ولم يشأ أن يجبر سيامند على ما لا يريد تواضعاً منه. غير أن ابنته عارضت ذلك ، وأصرّت على وجوب ارتفاع سيامند عن تلك المهنة الحقيرة لكي ترضى به زوجاً لها.

ونتج من ذلك إشكال اضطر الأمير إلى أن يعيد النظر مع سيامند في الموضوع ، واستدعاه إليه فكلمه طويلاً وسأله قائلاً :

- ولكن كيف ترضى يا سيامند أن يقول الناس إن صهر الأمير هو حاجبه وخادمه؟!

فأجابه في ابتسام وإصرار :

- أريد أن يعلم الناس أن الحجاب ليسوا كلاباً نجسة على الأبواب.

فقال له الأمير وقد بدا في وجهه التأثر من كلامه :

- وأنا أيضاً أريد أن يعلموا ذلك ، بل أنا أول من يدرك ذلك والله الحمد. فلو لا أنني أدرك ذلك لما وجدت فائدة في وضعك في منزلة غير التي أنت فيها ، لأن الكلاب لا تنقلب إلى آساد عن طريق رفع الرتب أو تغييرها. ولكن هذا الذي تقوله شيء ، وكون الأمير يريد أن يرفع صهره إلى مكانة أسمى شيء آخر.

فعاد سيامند قائلاً :

- فافرض أنني أضن بك أيها الأمير أن يخدمك غيري..

- ذلك تقدير أشكره لك.. ولكن بنتي من حقها أن لا يكون لديها كل هذا التقدير لي. إنك والحالة هذه تنزل بها إن تزوجتها إلى مستوى ما أنت فيه ، وربما كان لا يعينها هي أن تتشرف مثلك بحجابه بابي والقيام بأعباء خدمتي.

فقال سيامند :

- وأنت على يقين يا سيدي أنها لا تريدني وأنا في موضعي هذا؟

- طبعاً.. ذلك أمر بين ومفروغ منه.

- لها ما تريد.. على أن تعتبروا إجابتي إلى ذلك تنازلاً مني

وإكراماً.. وأن يضاف نافلة مني لقيمة المهر.

وامتعض الأمير من كلامه ، ولكنه أنهى الحديث دون أن يعلق عليه.
وخرج سيامند من عند الأمير، ليودع مكانه الذي كان عند باب
الدار، ثم ليصبح واحداً من رجالات الأمير المقربين لديه.
بيد أن تلك القربى لم تقطع علاقته بزميله الراعي. فقد كان
يحرص على أن يظلّ يلقاه ويجلس إليه في الأوقات التي كان قد اعتاد
أن يجلس إليه فيها.

وحينما قال له هذا الراعي في إحدى جلساته معه مشيراً إلى أنه لم
يعد أهلاً لمجالسة سيامند :

- ألم أقل لك يا أخي قبل اليوم: إنك لست مثلي.. إنك مصاب
بداء البحث عن ميراثك.. ميراثك من المجد والكرامة؟ فها أنت قد عثرت
اليوم على ما كنت تبحث عنه.
أجابه سيامند :

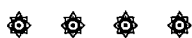
- لا والله لم أعر عليه بعد يا نعمان.. إنهم يدللونني أملاً وطمعاً
في فائدة يجنونها مني. تمنيت أن لو رضيت هذه الفتاة بي كما كنت
سابقاً حينما رأيتني من أول يوم وفي وضعي الذي كنت فيه قبل أن
أسوق إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة من بين برائن الأشقياء. إذاً
لعثرت حينئذ على كرامتي وميراثي كما تقول.

ولكني اليوم لا أزال كما كنت سابقاً حينما جئت أشكو إليك
حبّها، بل أشكو إليك احتقارها إياي.

إنني حينما أتزوجها اليوم، إنما أنتقم بذلك لنفسي التي ذلّت
وأهينت، ولكن هيهات أن أقطف بذلك لقلبي ثمرة حبّه وهواه.
فنظر إليه الراعي في دهشة وهو يقول :

- لست أعلم يا هذا أأنت متكبر جبار خلقت لتتألم مما أوتي
الناس من نعمة وعز، أم أنت ملك متواضع رحيم بعثت لتتكبر على
العظماء انتقاماً للضعفاء أمثالي ثم تعود فتجلس مع هؤلاء الضعفاء،
تعيش عيشهم وتنزل في منازلهم؟! ألم يعدوا أن يزوجوك من هذه
الفتاة؟ ألم تصبح عظيماً من عظماء الأمير؟ فما الذي تبغيه بعد هذا؟
كنت تتألم من أنك تحبها وهي لا تحبك، فما أنت اليوم ترى أنها
هي الأخرى تحبك، فلماذا لا تسكت وتنهأ؟
فقال سيامند :

- أمّا أنني أحبها فهذا صحيح.. وأما أنها قد أصبحت هي أيضاً
تحبني فهذا غير صحيح. وهذا هو كل ما يؤلمني ويعذب فؤادي!



وما هي إلا أيام قليلة مرت حتى عقد قران بنت الأمير على

سيامند في حفل رائع كبير.. وبعدها بفترة، كان قد تحدّد موعد العرس، وتهيأ لسيامند المنزل الذي ستنزل فيه عروسه مؤثثاً بأفخر أنواع الرياش والأثاث.

وفي ليلة العرس كان على القوم أن يقنعوا سيامند بضرورة إلقاء تلك الحبّات البالية من الجوز واللوز عن عنقه، ولكن سيامند تشبّث بها. ولما اقترح أحدهم أن يسترها إذن تحت ثيابه ويسبل رداءً من فوقها، أصرّ هو على أن يتركها تتدلى فوق أجمل معطف أو كساء يحلّي صدره، قائلاً:

- إن هذه الحبيبات أجمل في عيني من حجارة الماس والياقوت. ولما أدخل على العروس، وخلا إليها وهي في أجمل لباسها وزينتها، انزوى هو في ركن من أركان الغرفة لا يتكلم ولا يتتسم. بيد أن العروس لم تدهش لذلك، فقد أيقنت أنّ به حياءً يمنعه من أن يتجرأ فيبدأها هو بالحديث وهي بنت الأمير التي لم يكن من المتوقع أن تكون زوجة له. فابتسمت ودنت إليه قائلة:

- أتتخيل نفسك واقفاً لا تزال أمام باب والدي تحجب الناس عنه، أم بين الجبال تريد أن تنقض على أشقياء الطريق؟!.. فما راعها إلا أن انتفض بعيداً عنها وقال:

- « ابتعدي.. ابتعدي عني قبل أن تنجسي ثيابي بقذارتك وقبحك »

ثم وقف في أقصى الغرفة ينظر إليها بشزر، كأنما يذكرها بتاريخ ميلاد هذه الكلمة من فمها ويومها المشؤم..

أما هي فقد ارتدت عنه حائرة ملجمة الفم وقد كادت أن تحتق بين عوامل شتى من الخجل والألم وعذاب الكبرياء وطيف الذكرى... وعاد هو يقول لها وقد جمد في مكانه :

- إيه.. هل تذكرين.. هل تذكرين يوم أن كنت نجاسة ملقاة في طريقك أيتها الأميرة الطهور؟ .. إنني لا أزال ذلك الرجس المستقذر فلماذا لا تتحفظين مني؟ إن المكانة التي أقلني إليها أبوك لم تُبدلني قلباً غير القلب الذي أحبتك به يوم كنت نجساً قبيحاً، ولم تعطني جسماً غير ذلك الجسم، ولم تكسبني جمالاً بعد ذلك القبح. وأردف يصرخ في وجهها قائلاً كالمحموم:

- أنت لا تحبينني.. أنت لا تزالين تكرهين شخصي.. إنك تحبين المال الذي حفظته لأبيك من الضياع. إنك تتمسحين بالحرير الذي سترتم به نجاستي وقبحي كي لا يقرزك منظره وشكله، لا بحقيقتي وذاتي التي أحبتك بها. إنك أيها الماكرة إنما تقبلين المال الذي غلّقت به قلبي، لا القلب ذاته الذي خفق سويداؤه حباً بك واحترق من أجلك.

أنا سيامند.. أنا سيامند عارياً إلا من إنسانيتي التي احتفظت بها يوم فقدتها في سبيل الناس كل الناس، أنا سيامند عارياً إلا من قلبي المعذب

المكدود. أنا سيامند هذا.. أبحث عن تلك التي تحبني أنا، في غير مكر ولا نفاق. أنا سيامند، يتمتني الأيام، وظلمني الأوصياء، وغدر بي الناس، وسخروني لأغراضهم ومطامعهم، فمنذا الذي يعطف على قلبي إن لم أعطف أنا عليه ومنذا الذي ينتقم له إن لم أنتقم أنا له.

إنني أيتها الفتاة، لم أسلك هذا الطريق الشاق الخطر إليك لكي أصل منك إلى ما قد تظنين أو أسعد بالقرب منك والتمتع بقوامك، ولكنني غامرت هذه المغامرة سعياً وراء الانتقام لقلبي واسترداد كرامتي منك. عليك أن تدركي جيداً أنني حينما خاطرت بحياتي متعرضاً للموت مصوباً إلي من أيدي ستة من الأشرقياء المسلحين، إنما كنت أفعل ذلك في سبيل قلبي وكرامتي، لا من أجلك أنت أيتها الطفلة الطائشة اللعوب؛ وأهونُ بذلك كله تضحية في سبيل قلبي الذي لا أعشق سواه، وفي سبيل كرامتي التي وضعت دمي في سبيلها.

أجل لقد غامرت كل تلك المغامرات ابتغاء الوصول إلى هذه الساعة التي تجلسين إليّ فيها صاغرة لأوفيك ديناً حفظته لك عندي في أمان... لأقول لك بملء فمي وقلبي :

« ابتعدي.. ابتعدي عني قبل أن تنجسي قلبي بقذارتك وقبحك »

ثم ولّيت من الغرفة وهو يحملق فيها قائلاً :

وداعاً... وداعاً أيتها التي قسمت قلبي إلى شطرين، فكان لا بدّ

أن أجعل قلبها جذاذاً.

ثم انطلق إلى حيث يربض جواده في انتظاره فامتطى صهوته بعد أن تنكب قوسه وتسَلَّحَ بخنجره ، وكان قد جمع في خروجه شيئاً من الطعام وضروريات الطريق ، وتزَنَّرَ في وسطه بكل ما كان قد جمعه من أموال من الأمير وغيره طوال الفترة التي قضاها في حجابته وخدمته.

ثم أدار وجهة جواده شطر طريق القوافل إلى « وان » وانطلق يعدو تحت جناح الظلام لا يفكر إلا في صديقه نعمان الذي لم يودَّعه ولن يجده بعد الساعة قط.. هذا بينما كانت العروس مستسلمة في حجرتها لدوامة من الحيرة والألم والذعر ، لم تستطع معها أن تدرك ما الذي يجب عليها أن تصنع. وبعد قليل خرجت من غرفتها تنادي الخادمة الخاصة بها ولما خرجت إليها قالت لها في اضطراب وقلق :

- انطلقى سريعاً إلى والدي فقول لي يأت الآن إلى هنا.

ثم عادت إلى حجرتها لتنفجر بالبكاء والدموع.





الليل هادئ مظلم ، وطريق القوافل غير واضح المعالم ، ورهبة الوحشة سائدة في جميع الجهات ، ومع ذلك فإن سيامند يعدو بجواده عابراً بحر ذلك الظلام الموحش لا يفزعه من ذلك شيء.

كانت آذان الليل مصغية إلى وقع أقدام الجواد المتلاحقة ينبعث صدها في الآفاق ، بينما سيامند فوق ظهره يفكر ، في مرارة ، بشيء واحد فحسب ، هو إساءته للأمير فيما أقدم عليه.

كان يتصور غضبه الشديد حينما يصبح ليجد سيامند قد اختفى من المدينة وترك بنته من ورائه بعد أن ضحك عليه وعليها. سوف يتساءل الأمير: لماذا فعل المجنون هذا الأمر؟ ومن الذي أغضبه أو آذاه أو انتقص حقه؟ وسوف يحاول أن يتذكر أي بادرة إساءة وقعت من أحد تجاهه ولكنه لن يعثر على شيء. وحينئذ سيفضب الغضب الشديد.. سوف يتصور أن سيامند إنما كان عنده المثل الواضح لمن بدل الإحسان بالإساءة ، وردّ اللطف إلى صاحبه فظاظة ولؤماً.

ويتأثر سيامند وهو يتصور غضب الأمير هذا منه غاية التأثر، ثم يطلق زفرة حرّاء في نسيم ذلك الليل المظلم، ويعود يفكر - ربما ليواسي ضميره الذي يؤنبه - بأن الأمير لا بدّ أن يعلم بعدئذ سبب إقدامي على هذا.. سوف تحدّثه بالسبب بنته نفسها، أو فسيحدّثه بذلك صديقه نعمان.. ولا شك أنها إهانة فظيعة غير متحملة، تلك التي وجهتها إليّ بنته، ولئن كان ثمة من لا يتأثر منها فإن الأمير ليعلم أنني لا أقل عنه وجاهة وعزاً في بلدي لو لم يستبدّ بي الأشرار طفلاً يتيماً.

وأخذ يتساءل: ثم ما هي هذه الإساءة الفظيعة التي أسأت بها إليه؟ إنني لم أمس حتى ثوب ابنته بطرف يدي. لقد تركتها طاهرة عذراء كما كانت. كل ما هنالك أنني استلبت منها كرامتي وحقي من الباب الذي استطعت أن أحصل عليهما منه، وذلك حق لا يستطيع أن يجادلني فيه أحد.

ثم أخذ النعاس يراوده ويبدد أفكاره هذه، وبدأ رأسه يتدلّى فوق صدره والفرس تحبّ به من تحته.

ولم يعد يستطيع من شدة النعاس الانتباه إلى الطريق أو الإشراف على سير جواده. فنزل عنه ومال إلى أقرب شجرة منه في جانب الطريق فربط بها زمام فرسه وامتد هو فوق تلك الحشائش وأسلم عينيه للرقاد دون أن يحسب أي حساب لو حشة المكان أو سوء الاحتمالات.

ولم ينتبه من رقاده الهائى إلا لما قام مذعوراً على صوت جواده
يصهل صهيلاً غربياً يشق عنان الليل كله.

قام سيامند فزعاً يدير عينيه من حوله ، وإذا به يبصر على البعد بين
سواد الأشجار الكثيفة عينين عظيمتين تشعان ببريق من النور نحوه! ..
فأيقن أنه سبَّع ضار يكمن له هناك.

وحار ماذا يصنع.. الظلام كثيف بينه وبين ذلك السبع ، مما لا
يدعه يدرك مقدار البعد بينه وبينه ، ولا يعلم كيف يصل إلى مكانه في
أمان. فما كان منه إلا أن ركب جواده وأدار وجهه نحو الطريق ، ولبث
منتظراً هناك يرقب تلك العينين التي تضيئان نحوه.

وتبيّن سيامند أن العينين تقتربان منه ، ولكن دون أن يسمع لذلك
الاقتراب أيّ حس. وأدرك أن الوحش يقصد نحوه في حركة متلصصة.
فلم يجد بداً من أن يشدّ إلى قوسه سهماً ويحكم اتجاهه نحو تلك
العينين ، ثم يقذفه به وينطلق..

وما هو إلا أن قذفه حتى انبعث صوت من بين ظلام تلك
الأشجار يشبه الصاعقة ، انخلع له قلب سيامند وقلب جواده من
تحتة ، وانطلق الجواد يعدو كالريح فوق طريق متعرج خطر مظلم ،
وسيامند من فوقه متشبث به في قلق واضطراب. كانت تباشير الصباح
قد أخذت تبدو في الأفق ، وكان واضحاً أن الظلام بدأ ينحسر عن

الطريق وعن ذرى الجبال من حوله ، بيد أن الرعب كان لا يزال سارياً رغم ذلك في قلب سيامند من تأثير الاضطراب المخيف الذي استيقظ عليه والصوت المرعب الذي دوى في هدوء الفجر من حوله.

وإنه كذلك ، يشدّ نحوه زمام الجواد محاولاً السيطرة عليه ، إذ هبط إلى جانب الطريق أمامه ، سبع كبير يشبه النمر نازلاً من بين الأدغال. فما هو إلا أن لمح الجواد حتى تسمّر في الأرض ، ووقف لا يأتي بحركة؛ بينما أخذ السبع يتمطى في مكانه متهيأً للوثوب..

أما سيامند فقد أيقن أن بينه وبين كارثة ما بضع لحظات. ولم يجد أمامه غير سبيل المغامرة والهجوم. فأسرع نازلاً من جواده وقد هيا خنجره في يده؛ واتجه صاعداً في جانب الطريق ، حتى إذا دنا منه هبط عليه من فوق ، ولكنه رأى السبع يتجه إليه في خطى سريعة وزئير مخيف؛ فما كان من سيامند إلا أن جانب الطريق قليلاً ، ثم انطلق نحوه منقضاً عليه قاصداً أن يطبق بيديه على عنقه.

وبالفعل فقد استطاع أن يمسك بعنقه الغليظة في شدة ، ولكن قسماً كبيراً من كتف سيامند كان قد وقع بين فكيّ السبع.

غير أن سيامند لم يبال بذلك ، ولم يحاول أن ينتبه إلى الألم الناشب في كتفه؛ وأخذ يشدّ بيده اليسرى على خناقه جهد استطاعته بينما يمينه تهوي بالخنجر في ظهره وجوانب بطنه. غير أنه لم يستطع

رغم ذلك أن يشلّ حركته ويسيطر عليه إلا لما طعنه في أسفل عنقه بضربة قوية محكمة. هنالك استطاع أن يفلت كتفه من بين فكيه المرتحيتين ثم أن يرميه على جنبه ويقضي عليه.

ونفض عنه سيامند ليلتفت إلى كتفه الذي يشخب دماً، وليستيقظ إلى لبيب الألم فيه. ولم يدر ماذا يصنع بجرحه هذا في ذلك الليل بتلك البيداء، فخلع معطفه، وجمعه كالخرقة في يده، وشد به على مكان الجرح الذي ينزف. وانطلق وراء جواده الذي كان قد ابتعد عنه كثيراً. وما إن وصل إلى الجواد واستطاع تهدئته وركوبه، حتى كانت طاقته قد تبددت وذابت، وكان معطفه قد انقلب إلى كتلة حمراء من الدماء.

وانطلق به الجواد يسري، وأخذ هو يترقب أي شخص، أو دار أو قرية تطلع أمام عينيه..

ومع إشراق الشمس.. وأمام نبع ماء على الطريق.. كانت فتاة في ريعان الصبا تملأ جرتّها لتعود بها إلى قريتها. وإذا بها تشاهد فارساً يطلع عليها من الطريق مصفر اللون خائر القوى وقد تخضب جسمه وثيابه بالدماء.

وفزعت الفتاة.. وحملت جرتها على كتفها واستدبرت لتمشي، ولكن صوت الفارس لاحقها قائلاً في هدوء وضعف:
- أيتها الفتاة.. أيتها الفتاة..

فالتفتت إليه ولم تحر جواباً، وظلت تمشي.

فعاد يقول لها: ألا تستطيعين أن تنقذي جريحاً من الموت؟

وهنا انتبهت الفتاة إلى أنها أمام شاب جريح، لا أمام شقي أو

قاطع طريق. ووضعت جرتها قائمة في تلثم:

- بلى.. بلى.. ولكن.. ولكن تعال فاتبعني بجوادك إلى القرية.

وانطلقت أمامه ترشده إلى الطريق وهي تقول له:

- القرية ههنا.. وراء هذا الكتيب.. قريبة.

وتبعها سيامند بجواده يتخطى بين جذوع الأشجار المترصة وهو

يشد بيده على جرحه الذي يأبى إلا أن ينزف..

ووصلت الفتاة بسيامند إلى دارها الذي كان يبدو خالياً..

وأسرعت فأحرقت خرقاً بالية جمعتها.. ثم عمدت إلى رمادها

فوضعت في فوهة الجرح، وشدت فوقه الرباطات والعصائب، ثم

هيأت له فراشاً وثيراً وأشارت له أن يستريح ريثما تبحث له عن

الأدوية اللازمة الأخرى..

وهوى سيامند إلى الفراش ليلتهم الراحة من تعبهم وآلامهم. وما هو إلا

أن بدأ جرحه يخدر، وراح هو في نوم هادئ عميق.

وبعد فترة استيقظ على صوت الفتاة واقفة فوق رأسه.. ولما فتح

عينيه قالت له في خجل ولطف:

- لم يغب عني أنك متعب تحتاج إلى النوم والراحة ، ولكنني
أخشى إذا لم نسرع بتغيير لفافة جرحك ومداواته - أن يتأخر شفاؤه.
ونظر سيامند فإذا بأدوية ومعالجين ، قد أحضرتها وهيأتها إلى
جانبه. فجلس متكئاً وشهق شهقة طويلة أغمض معها عينيه إغماضة
أطول.. فعل من يستنشق نسيماً عليلاً يتهادى في رابية خضراء بعد أن
ظل طويلاً في أعماق سجن ضيق ليس فيه متنفس.

لقد كانت تلك الشهقة تحمل إليه أول شعور بالسعادة في دنياه
التي عاشها؛ وكانت تحمل إلى قلبه أول إحساس بأنه ليس غريباً في
هذه الحياة ، وإنما له ثمة من يعطف عليه ويحنّ إليه.

جلس سيامند.. ونظر إلى الفتاة وفي عينيه بريق الدمع ، وقال لها
وفي حلقه غصة البكاء :

- كثير عليّ كل هذا أيتها الفتاة.. إنني منبوذ حقير ، لم يعودني
الناس مثل هذا العطف ، ولم يربني الدهر على كل هذه العناية.
ثم أجهش بالبكاء قائلاً :

- دعيني أشكرك بفيض من دموعي أيتها الإنسانية النبيلة ، فلست
أملك ما هو أغلى منها لديّ. لقد عشت شبابي كله أتجرع عذاب المآسي
والمصائب دون أن أذل قطرة واحدة منها لكل ذلك في أي يوم من الأيام.
ولكنني اليوم لا أملك حبس شيء من هذه الدموع بين يدي عطفك

الذي تشمليني به وعنايتك التي أذاقتني لأول مرة طعم الأنس بالحياة.
جثت الفتاة على ركبتيها في هدوء وقد أدهشتها هذه الكلمات التي
سمعتها، وأفزعتها الدموع التي بدأت تتدحرج على وجه الرجل ساخنة
متلاحقة، وأقفل الحياء لسانها أن يتحرك بأي كلمة فاضطرت إلى أن
تجاهل كلامه ودموعه، والتفتت إلى الأدوية المهيأة إلى جانبها قائلة:
- فلنك الرباطة كي أغير لك الدواء.

وأخذت تنزع عنه لفافة جرحه في لطف، وهي تقول:
- الواقع أن الجرح أهون بكثير - والحمد لله - مما كان متوقعا...
كان منظر الدماء وكثرتها هو الذي يقلقنا. ولكن كيف حصل ذلك؟
لا بد أنها صدمة أو وقعة من الفرس! ..
ولم يجبها سيامند بغير قوله:

- سأحدثك عن كل شيء فيما بعد..
ولما أتمت علاجه وأعادت الأربطة، جثت على مقربة منه وسألته
في استحياء:

- هل أستطيع أن أستشيرك فيما تفضله من طعام أهينه لك؟
فأجابها سيامند وهو ينظر في جفونها السوداء المسبلة:
- دعينا من الطعام الآن. ولكن ألا يوجد في هذه الدار أحد غيرك؟
فقالت له:

- نحن ثلاثة في هذه الدار: أنا وأخي الأكبر وزوجته. وكانت لنا أم غير أنها ماتت منذ ستة أشهر.

فسألها سيامند: وأين هو أخوك الآن؟

ف قالت: يخرج صباح كل يوم يرعى أغنامنا، لقد خرج اليوم قبل مجيئك إلى الدار.. ولكنه سيعود مع العصر.

فقال لها سيامند في قلق:

- إذاً فلا ريب أن بقائي هنا الآن غير مناسب.

وتحفظ للقيام قائلاً:

- كان ينبغي أن أدرك وضعك المخرج عندما وصلت معك إلى الدار.. أظن أنني أستطيع الآن مواصلة السير والانصراف شاكراً.

ولكنها طمأنته وأصرت على وجوب مكثه في الدار قائلة:

- سوف يكون أمري محرجاً إذا علم أخي أن جريحاً نزل ضيفاً بنا،

ثم انطلق قبل أن تؤدي واجب مداواته وإكرامه. ثم إن أخي لا يجهلني حتى ينكر من أمري شيئاً.. ولن يتهمك حتى يظن بك سوءاً.

ثم هبت واقفة تقول له:

- والآن دعني أعود فأسألك عما تفضله من طعام كي أهيه لك.

فسكت سيامند قليلاً... ثم قال لها:

- فإذا كان لا بدّ مما تقولين، فأتيني إذاً بأي طعام موفور لديكم الآن.

فأدبرت الفتاة لتمضي. ولكنه استدرك فنادها... ولما عادت إليه قال لها :

- هل أستطيع أن أعلم اسمك الذي ينبغي أن أناذك به ؟
فابتسمت قائلة : اسمي « سينم » ، وبدأ على وجهها كأنما هي الأخرى تريد أن تعلم اسمه ، ولكن الحياء جعلها تغص بالسؤال فسكتت.
فقال لها : أما أنا فاسمي « سيامند » .

وأردف قائلاً : كنت أريد أن أقول لك أنه يوجد في خرجي على ظهر الجواد بعض الأطعمة ، حبذا لو أخرجتها ووضعتها في الدار عندكم فلا داعي إلى بقائها.

فهزت برأسها ملبية ثم خرجت.

ومع خروجها كان بصر سيامند عالقاً بها يتبعها. حتى إذا غابت عنه ، علق بها خياله ؛ ولم يكن قد فرغ فكره المتعب قبل ذلك للتأمل فيها والانتباه إليها. جلس في الحجرة وحده يتخيلها وهي أمامه تكلمه وتبتسم له وتلاطفه.. وراح يستعيد صورتها أمامه بقوامها الممشوق ، وثوبها السابغ الطويل ، وخمارها المحكم حول وجهها فلا يبدو تحته من شعرها العسلي الجميل إلا قليل من الجمّة البارزة فوق جبينها ، ووجهها الصغير الهادئ الذي يتسم بعينين رائعتين في لون شعرها الجميل.

وانتقل تفكيره بعدها إلى شيء واحد فقط ، وهو : هل تكون هذه الفتاة مخطوبة يا ترى ؟ وهل من سبيل إلى أن يمتن صلة التعارف بأخيها الذي سيجيء بعد قليل كيما يسأله عن ذلك ؟ ثم هل يمكن لهذه الفتاة أن تحبه كما تعطف عليه ، وتقبله لها زوجاً كما تقبله في بيتها ضيفاً ؟. إن كان كذلك ، فما أسعد تلك الساعة التي طلع عليه فيها ذلك السبع فخدشه هذا الخدش في كتفه.. بل ما أسعده في هذه القرية التي سيعثر فيها على عمره الضائع وهنائه المفقود.

ولما عادت إليه بالطعام ، قالت له بعد أن جلست على مقربة منه :

- كيف تشعر بجرحك ؟ هل يساورك منه أي ألم ؟

فأجابها وهو يبدأ بتناول طعامه :

- لا أجد أي ألم.. لقد كان لهذا الدواء الذي أسعفتني به أثر كبير

في تخدير ألمه وإيقاف نزفه.

وهنا ابتدرته قائلة :

- لقد كنت تريد أن تحدثني عن قصة هذا الجرح الغريب..

فقال لها وقد انتبه إلى أنه كان عليه أن يبادر قبل الآن فيعرفها

على نفسه ليطمئنها ولكي لا يدع الوسواس تتسرب إلى نفسها عنه :

- فعلاً.. لقد كان علي أن أبادر بالحديث عن ذلك قبل الآن. إنني

أشكر لك يا سينم معاملتك الرقيقة هذه.

ثم مضى يحدثها عن نفسه من لدن وعى على حياته إلى الساعة التي رآها فيها عند نبع الماء.. بل لقد أصر على أن لا يخفي عنها شيئاً من كل ما مرّ عليه خصوصاً قصة حبه لبنت الأمير وزواجه منها، وذلك كي يقف من وراء ذلك على نوع الأثر الذي سيقى في نفسها من كل ذلك الحديث. كان يترجم لها حياته أثناء تناول طعامه، في تأثر واضح ونشوة بادية. بل كان وهو في حديثه ذاك كأنه سكير يرتشف مع كل لقمة من طعامه جرعة من الخمر، فتتفخ أوداجه، ويحمر وجهه، وتغشاه النشوة. وكانت سينم، وهي تنصت إلى حديثه هذا، تنتهز الفرصة فتأذن لنفسها أن تسرح الطرف في شكله وحركاته وجسمه، دون أن ينتبه هو إلى ذلك منها.

كان يعجبها منه الجرأة المنبعثة من عينيه، والشهامة المرفوع بها رأسه؛ وهما صفتان تعجب بهما كل أنثى. وكان يعجبها أيضاً الكبرياء التي تفيض بها جبينه، والقوة الواضحة في ساعديه وضخامة شكله؛ ولم يكن يعيب هذه الصفات في نظرها أنه غير وسيم وأنه أسمر عظيم الجمّة خشن الملمس تنبعث من ظلّه رائحة الوحوش.

ولما أنهى سيامند حديثه، قال لها وهو يهز رأسه:

- هذه هي رواية حياتي كلها، ولست أدري هل ختمت أم لا

يزال لها بقية آتية؟

ونظر في وجهها يتفرس في مشاعرها.. ولا ريب أن سينم فهمت ما أراد، غير أنها تجاهلت وأسرعت فعلمت على حديثه الطويل عن قصة حياته قائلة في أسى وتأثر واضح:

- كنت أحسب أن هذا الخدش الذي على كتفك هو أقسى جرح ذقت، وإذا هو شيء غير ذي بال حيال جروحك الأخرى التي أصابك بها الدهر.. ولا ريب أن أشد جرح فيها هو ذاك الذي أصابك في قلبك... وتابعت حديثها تقول:

- ولكن ألا تجد أنك قد ظلمت الأمير في ابنته بدون أي جريمة منه تبيح لك ذلك، بل مع ما أنعم عليك بدون أي إيذاء لك أو تمن؟ فقال لها: بلى والله لقد ظلمته، ولكن عذري أنني كنت شاباً مصاباً في كرامتي ومكانتي وراثي، استلبها مني الظالمون ثم ألقوا بعدها الأصفاد في أقدامي والأزمة في عنقي؛ وكان ينزف عليّ دائي هذا بألم ما بعده ألم. فأبت ابنته مع ذلك إلا أن تقفز بقدمها فوق قلبي تسحقه، وإلا أن تبصق فوق جرحي هذا ليزيده عليّ ألمه حرقة ولهباً. وحينما جاء من يشفع لقلبي أمام قدميها، كان هذا الشفيع دم ستة أشخاص استحلّ وأريق على يدي.

وحينما انتفض قلبي من تحت قدميها وحفظت كرامتي من بين يديها، كنت سكراناً ثملاً بل كنت مجنوناً ثائراً، لا أبغي إلا الثأر لقلبي

والانتقام لكرامتي على أي حال ومن أي طريق. ولقد علمت أن في الطريق جسراً لا بد أن أمرّ عليه، ولن يكون إلا والدها ولكن علمي هذا كان أقل من أن يهدئ ثائرتي ويشفي جنوني.

ثم أردف يقول لها :

- وعلى كل فلن أنسى، إن امتد بي العمر، أن أعود إليه فألقاه مستسماً عن ظلمي له وموضحاً له حالي هذا مع ابنته. ويقىني أنني لن أجده إلا مساحاً كريماً.

ثم انفتل عن الطعام شاكراً إياها.. واتكأ فوق فراشه يسألها :

- ولكن هل تجدينني ظلمت الفتاة نفسها؟ ..

فسكتت قليلاً.. ثم أجابته في هدوء :

- إن كلمة واحدة بوسعها أن تجرح كرامة الإنسان وتكسر قلبه، ولكن الشام الجرح أو رآب الصدع لا يتأتى في الغالب إلا من وراء الإقدام على عمل حاسم... ولذلك فلا تصح الموازنة والمقابلة بين تلك الكلمة وذلك العمل.

وتابعت حديثها تقول له :

- وأنا فلو كنت مكان تلك الأميرة وآذيت شعور إنسان ما بمثل ما نطق، لما وجدت من الخجل أي سبيل يجرتني بعد ذلك على أن ألقاه متناسية أو غير مبالية بما أسأت إليه.

فطرب سيامند من جوابها هذا أيما طرب ، وجذب كلامها قلبه نحوها جذباً شديداً جرّاه على أن يبادر فيقول لها :

- لقد طهرت قلبي اليوم من آخر رجس من حبها ، وخلصت كرامتي من عبثها. وليس لي الآن من أمنية في الحياة بعد أن قطعت نيفاً وثلاثين عاماً في طريق الأسى والشقاء إلا أن أعثر على القلب الذي يبادلني حباً بحب ، يكون إنساناً ليقدر فيّ أنني أيضاً مثله إنسان. فهو وحده الذي يستطيع أن يغمر عمري الذي مضى بعذابه وآلامه في يَمّ النسيان ، وهو وحده الذي يستطيع أن يزيح عن عيني أشباح الماضي التي لا تزال تلاحقني وتطاردني بالآلام ، لأبصر من ورائها كل ما ينعم به هؤلاء الناس من سعادة لا أجدها وفرح لا أشعر به. وإن قلبي ليخفق بين جنبي قائلاً إنني قد عثرت على هذا الإنسان ورأيت ، وأنه قد آن لي اليوم أن أجد عمري الضائع وأجد فيه كل ما يجده الناس من مسرات وأفراح.

ونظر إلى وجه سينم ، وإذا هو قد تضرع بالدم ، وغابت عيناها تحت جفونها المسبلة..

وكأنما زادها سكوته وملاحظته إياها خجلاً ، فلم تجد مفرأ مما هي فيه سوى أن تلتجئ إلى حديث الطعام ومائدته الجائمة بينهما..

وقالت له في صوت متلعثم النبرات :

- لماذا لا تأكل..؟ لعل الطعام لم يعجبك ! ...

وأجابها مبتسماً :

- لم أجد نفسي أكلواً في يوم ما مثل هذا اليوم.. أنا أشكرك غاية الشكر.

فهبت واقفة تحمل الطعام لتخرج به.. كان كل همها هو أن تخرج بنفسها هاربة بحيائها من وجه سيامند. ووقفت تستند إلى جدار المطبخ كأنها تستريح من عبء.. كان قلبها لا يزال يخفق، ووجهها لا يزال متضرجاً بالحمرة الساخنة.

وعادت من جديد تتخيل كلام سيامند الجريء لها.. لها وحدها دون أي رقيب أو وسيط بينهما، وإذا بقلبها يعود مرة أخرى إلى خفقانه الشديد. ولم يكن سببه في هذه المرة الحياء من سيامند، وإنما كان سببه الحياء من أنها قد بدأت تحب...

ولبثت واقفة هناك في المطبخ تتساءل: أحقاً هو يحبها..؟ أحقاً أنه يشير بكلامه إليها هي؟.. ولكن هل أنا أيضاً أحبه؟..

أوه.. إنني أستحي من هذا!.. ولكن ربما سألني الآن، ماذا سأقول له؟.. إنني لا أعرف سوى أنّ صدري يصعد ويهبط في لذة وغبطة، وأيضاً.. أشعر أن هذا الرجل إنسان.. إنسان قسا عليه أهله وصحبه وجميع الناس، وإنني أهوى أن أنقذ إنسانيته هذه من القسوة والآلام. إذاً فإنما أنا أعطف عليه وأهوى إنسانيته فقط...

أما سيامند فلم يخف عليه - وقد بقي وحده في الغرفة - أن سينم
إنما تعللت بأمر مائدة الطعام لكي تفرّ بحيائها من وجهه ، وكان ذلك
في نظره دليلاً على أنها تبادله بعض المشاعر التي يجدها هو تجاهها.
وجراه ذلك على أن يصيح فيناديها من غرفته...

وسمعت صوته يناديها وهي لا تزال تدور حول نفسها في حجرة
المطبخ تسائل نفسها وتفكر.. فأسرعت إليه وقد عاودها الخجل والخفقان..
قال لها سيامند وهي واقفة في فم الغرفة :

- لا شك أنني قد أصبحت ثقلاً عليك هذا اليوم.. كنت أريد أن
أسألك شربة ماء.

ولا ريب أنه لم يكن يبتغي من شربة الماء إلا أن تعود إليه سينم
فينظر إليها ويكلّمها. بيد أنها قدّمت إليه الماء ثم قالت في خجل
واضح :

- لا شك أنك تريد أن تستريح وتنام قليلاً بعد الطعام.

سأغلق دونك الباب كي يهدأ المكان من حولك.

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها ، قبل أن يستطيع أن يقول لها
هو شيئاً.

ولا شك أن كلاّ منهما لم يهدأ بعد ذلك : لا هو استراح لينام ،
وإنما بدأت مشاعر الحب تعصر قلبه وتدغدغه. ولا هي استطاعت أن

تشاغل بأي عمل.. لقد كان عليها أن تشغل في استقبال ميلاد مشاعر
مثيرة في جوانحها وبين جنبئها.

وفي وقت العصر، عاد أخوها إلى الدار يسوق أمامه شياؤه.
فاستقبلته مريحة، ثم أخبرته بقصة سيامند وكيف رآها عند نبع الماء
جريحاً واستغاث بها، فجاءت به وتعهدت شأنه.

فسألها: وأين هو بعد ذلك؟

فقالت: إنه لا يزال هنا.. في هذه الحجرة.

فما راعها إلا لكمة عنيفة أهوى بها أخوها على وجهها قائلاً:

- وماذا تصنعين به هنا أيتها الآثمة؟! تلعقين جراحه أم تستأنسين

بصحبتة؟

وسمع سيامند من داخل حجرة الصوت.. وأدرك أنه صوت
أخيها. وقبل أن يستوفز ليقوم فيخرج إليه ويكلمه مهدئاً، كان هو قد
فتح الباب عليه، ووقف فوق فراشه قائلاً في حدة وغضب:

- يمكنك أيها السيد أن تغادر هذه الدار الآن بعد أن ضُمدَّ

جراحك ولم يبق لك فيها من حاجة.

فسكت سيامند قليلاً، وهو يعن متكئاً، في عينيه المحمّرتين، وشعره
الأشعث، ووجهه العابس المتجهم... ثم نهض يسوي أطراف ثيابه
ويضع قوسه في منكبه، ومضى يخطو ساكتاً في هدوء نحو باب الحجرة؛

ولما انتهى إلى خارجها وقف والتفت إليه قائلاً في ترفع وكبرياء :
- فعلاً لم يبق لي من حاجة هنا بعدما طوقتني أختك بإنسانيتها
فأنقذتني من الهلاك. ولولا أن عظيم نبلها كان كفارة لبذيء لؤمك
لعلمتك في هذا المكان وأمام أختك كيف ينبغي أن تكون نبيلاً.
ثم التفت إلى سينم - وقد رنحها الخجل فاستندت إلى الجدار -
فأنحني لها انحناء شكر وإجلال ، بينما كان جوابها على موقفه ذاك أن زاد
بها التخاذل من شدة الحياء وسقطت مغشياً عليها. ومضى سيامند فأخذ
بزمam جواده وانطلق ذاهباً.





والآن.. إلى أين ينبغي أن يذهب سيامند؟

لقد كانت وجهته حين انطلق راحلاً من عند الأمير هي «وان». ولكن هيهات له الآن أن يستطيع مواصلة السير إليها. لا خوفاً من السباع أن تعود فتهاجمه، ولكن خوفاً من قلبه الذي لم يعد ملكاً له. لقد ملكت سينم قلبه مرتين: مرة حينما اهتمت بأمره وأخلصت في العناية به، رغم أنها لا تعلم عنه شيئاً يطمعها فيه أو يرهبها منه؛ ومرة ثانية حينما تبين له بعد مجيء أخيها أنها كانت تغامر.. ومن يدري بماذا؟ ربما بحياتها، وربما بسعادتها في تلك الدار مع أخيها، لقد أثرت أن ترعاه جريحاً وتكرمه ضيفاً وإن غضب عليها أخوها، بل من يدري؟ فربما كان جزاؤها لديه أكثر من الغضب وحده.

وجلس فوق رابية في ضاحية القرية يفكر.. لا في الطريق الذي ينبغي أن يسلكه، ولا في حقه الذي اغتصبه الأوصياء، أو في الاحتقار الذي لاقاه من الناس؛ وإنما كان يفكر في شيء آخر هذه المرة.

كان يفكر متعجباً كيف لم يندفع - كعادته - إلى الانتقام من ذاك الذي لم يخدش كرامته فقط، وإنما جاء فسحقه سحقاً حينما طرده على تلك الصورة الشائنة البذيئة، وهو الذي عاش كل عمره في مجاهدة كل من يرميه بنظرة إهانة أو كلمة تحقير؟! لقد كان قادراً على أن لا يخضع لأمره ويخرج مطروداً من داره بذلك الشكل الذليل، فلماذا خضع ورضي أن يطرد، ولماذا لم يجعله كبش الفداء عن أولئك الظالمين الذين له عندهم ثأر لم ينم بعد في نفسه؟! ..

ولقد كان الجواب واضحاً في نفسه التي تغيرت نظرتها إلى الحياة والناس منذ ذلك اليوم.. فلقد أصبح أسيراً للإنسانية التي آمن بوجودها منذ ذلك الحين؛ فغفر لهذا رعونته ولؤمه من أجل إنسانية تلك الفتاة ونبيلها؛ إذ بقدر ما ظهر له من همجية الرجل ولؤمه، كان يظهر له في مقابل ذلك لطف الفتاة وتضحيتها؛ وكان لابد أن يتغلب على مشاعره مظهر التضحية والنبيل؛ فوقف أمامه لأول مرة محيياً وخاشعاً ومرّ من أمام مظهر الهمجية واللؤم مترفعاً.

ولقد كان يحسب قبل ذلك - من هول ما يحقد على ظالميه - أنه لا توجد بين الناس إنسانية تستأهل الشفاعة، ومن ثم فلا معنى للحب الذي تطيش من ورائه قلوب بعض الناس وتضيع. ولكن هذه الفتاة قد استطاعت اليوم أن تهز قلبه بنبيلها أكثر مما هزه المغتصبون

والأوصياء بظلمهم ، وإذا بأحقاد قلبه تتساقط.. وإذا به يعثر على ما يغنيه عن أمواله التي ضاعت ، وعن أهله الذين فقدهم ، وعن الثأر الذي كان يلاحقه؛ وإذا به ينظر اليوم إلى كل ما حوله من جبال خضراء وربى تيس بالزهر وسماء في زرقة البحر، فلا يجدها جميعاً إلا امرأة صافية لصفات الطهر والنبل واللطف التي اتخذت مظهرها في تلك الفتاة. إنه اليوم يسمع حفيف النسيم ماراً به فيجد فيه رقتها وصفاءها، ويسرّح عينيه في اخضرار الأرض وزخرفها فيطربه أنه يجد فيه فتنتها ورواءها، ويرفع رأسه ينظر في كواكب السماء التي أخذ يبدو لعينه لألّاؤها فلا يجدها إلا مثلاً لطهرها وسموها. ولقد كان من قبل ذلك لا يفهم من أسرار الطبيعة إلا أنها موئل للوحوش وملجأ للهاربين من ظلم البشرية وبؤسها.

وعقد سيامند العزم وهو جالس على رايته تلك أن لا يفارق تلك القرية، وأن يتخذ مثابته فيها، كي يكون على مقربة من الفتاة التي ملكت فؤاده وغيّرت في نفسه طعم الحياة.

وعاد أدراجه إلى داخل القرية يسأل كل من يراه عن دار أو غرفة يستأجرها لسكنائه... وبعد بحث ، استطاع أن يأوي إلى غرفة في دار امرأة عجوز في طرف القرية.

وفي الليل ، كان يسهر فوق سطح الدار ، متخيلاً أن القرية كلها

تسهر معه وإن كانت تبدو مظلمة الأنحاء لا يترآى في جوانبها سوى نيران خافتة. كان يتخيل ذلك لعلمه أن في هذه القرية فتاة اهتمت به الاهتمام الشديد، ولا ريب أنها الآن أيضاً منصرفة بفكرها إليه، وإن كانت في ظاهرها نائمة في فراشها أو منهمكة في بعض أعمالها، وحسب ذلك سبباً يجعله يتخيل أن القرية أيضاً مهتمة به ساهرة معه، فقد كان لا ينظر في أنحائها إلا على أنها دار تضم «سينم» أو ثوب ترتديه.

وأخذ يجيل عينيه في أطرافها، يريد أن يعثر على موقع دار «سينم» وضياء النار فيها؛ ولكنه لم يستطع أن يتبين موقعها، فقد كانت الظلمة كثيفة، ثم إنه حديث عهد بالقرية ومعرفة جهاتها. وصعدت إليه العجوز، وجلست على كذب منه، تهمس مع السبحة التي في يدها؛ وقالت له :

- يبدو يا بني أنك قادم من بلد بعيد! ..
- أجل أيتها الخالة.. إنني قادم من «موش»
- ولكن هل ستقيم هنا، أم أنك على سفر؟
- فسكت سيامند قليلاً، ثم قال لها :
- إنني على سفر.. ولكنني أحببت أن أستريح قليلاً في هذه القرية الجميلة.

- فعلاً يجب يا بني أن تستريح قليلاً في طريقك.. ولكن ألا تخشى

مخاوف الطريق وحدك؟ إن مداخل هذه الأحراش ليست آمنة كما قد يبدو لك.

فضاق سيامند ذرعاً بمحدثها، وسكت فترة لا يجيبها، ثم قال لها:
- أظن أن في بعض أطراف هذه القرية نبع ماء رأيتَه في طريقي إليها؛ ولست أدري الآن في أي جهة يقع.

- في أطراف القرية عدّة عيون ماء يا بني. ولكن يبدو أنك مررت بالعين الذي في الجنوب... إذ تقع هي على مقربة من طريق القوافل إلى موش.

وسكت سيامند يفكر كيف يتمكن من الاجتماع بسينم.. وحدث نفسه أنه ليس أفضل من أن يترقبها عند ذلك النبع في مثل الوقت الذي شاهدها فيه..

وحينما حاول أن ينعس فينام، بعد أن مضى هزيع طويل من الليل، لم يجد النوم إلى عينيه سبيلاً؛ فقد كان عليه أن ينهمك في استقبال مشاعره الجديدة... لقد اعتاد أن ينام حينما يكون وحيداً في عزلة عن كل شيء؛ ولقد كانت نفسه تشعر بالوحدة حتى عندما يكون بين جيش من أخلاط الناس، فما هم منه في شيء، وما ثم شيء من وجودهم أو أحاديثهم يتصل بطرف من نفسه! .. ولكنه اليوم لا يجد الوحدة الهادئة لينام في ظلها، إن كل شيء من حوله، حتى الجدران الأربعة من أطرافه، وذرات الظلمة المتراقصة أمام عينيه، وطين الهدوء الذي يجول في أذنيه - كل ذلك يسكب في خياله صخباً لا يهدأ من

حديثها معه واهتمامها به وحديثه معها وحركاتها من حوله ذاهبة آية مستحية ومبتسمة ، ثم جلال الإنسانية والتضحية الذي تراءى مهيباً في شكلها وهي تترنح مستندة إلى جدار الغرفة من شدة ما خجلت من لؤم أخيها الذي جاء يشطب إنسانيتها على حين غرة. فأنى له أن ينام متخلصاً من كل هذه الدنيا الجديدة التي خلقت في نفسه.

ومع أنفاس الضياء الأولى من الصباح ، خرج قاصداً الضاحية الجنوبية للقرية ، يبحث عن النبع الذي هناك. وسرعان ما اهتدى إليه حينما رأى خط الطريق المتعرج سارياً على مقربة منه.

واتخذ مجلسه على مقربة من نبع الماء ، وراح يلتهم أنفاس ذلك الصباح الرطب الجميل ، ويجل بين تلك الخضرة عينين يحرقهما النعاس ، بينما مال بأذنيه إلى خرير الماء الساري متعرجاً إلى جانبه في صفاء وبريق.

وخطر في باله أن يطفئ حرقه النعاس في عينيه بشيء من هذا الماء البارد يغسل به وجهه... وجلس فوق فم النبع يداعب رقراق الماء بيديه ويقذف به وجهه. وظل في مكانه ذاك ساهماً في بريقه ، وكل ما حوله يغني لخياله أغنية الحب.. الحب الذي نزل به ضيفاً منذ البارحة فأسهره الليل بطوله.

يا لسحر الحب ! .. كيف يبدل الأرض غير الأرض والدنيا غير الدنيا من حول الإنسان المحب ! .. لقد مرّ سيامند في هذا المكان وبهذا النبع البارحة ، فلم يكن يشعر إلا أنه يسبح بين قتام يموج موحشاً أمام

عينيه؛ وربما انتبهت عيناه إذ ذاك إلى بريق هذا الماء ، فلم يبصره إلا كبصقة تلمع فوق حظه الأسود الموحش؛ وربما خطفت عيناه منظراً لهذه الأغصان التي تميلها نسيمات الصباح ، ولكنه لم يفهم منها ولم ير فيها إلا سخرية الأقدار بكرامته ونفسه.

أما اليوم فها هو ينظر إلى النبع نفسه فيرى في بريقه وحده دنيا واسعة أمامه تضحك في عينيه وتبسم ، وهاهي الأشجار نفسها وإنها لتغني مع الرياح لسمعه ألحاناً عذبة تغشيه بنشوة روحية حاملة.

وراح سيامند ينغمس في أفكاره الحاملة هذه وهو جاثم فوق نبع الماء ، وقد بدا كأنه ملك خاشع يسجد لسحر ذلك الصباح ونداء ، أو كأنه ملحد تائب جثا نادماً بين يدي عظمة الإله الذي آمن به.

غير أن جلسته الساهمة تلك لم تطل كثيراً.. فما كادت الشمس تشرق بحمرتها على ذرى تلك الجبال حتى كانت هناك أقدام تقترب في هدوء من مكانه الجاثم فيه.

ورفع سيامند رأسه وإذا سينم آتية نحو الماء على استحياء ومعها وعاؤها. فهبّ سيامند واقفاً لا يدري ماذا يصنع ، لقد فاجأه دافع قوي إلى أن يندفع نحوها فيأخذها إلى صدره ، ولكنه وجم خائفاً من خجلها. غير أنه مع ذلك أمسك بذراعيها حينما اقتربت منه وقال لها وكلامه يتلعثم في دقات قلبه :

- سينم.. سينم أنت أسرت قلبي ، أنت سحرت حياتي. لقد
رضيت على الدنيا كلها من أجل نبلك ، وصفحت عن الظالمين
كلهم بسبب إنسانيتك ولطفك.

وراح يهز ذراعيها قائلاً :

- كيف عرّضت نفسك للؤم أخيك من أجلي يا عينيّ الغاليتين ،
بل يا حياتي التي لم أشعر بها قبل اليوم.

فسيطر عليها الخجل من حديثه المفاجئ المحموم هذا.. ولم تزد
على أن استرخت بين يديه وابتسمت ساكتة..

فتابع حديثه يسألها :

- طمأنيني يا سينم ، هل تطاول عليك أخوك بشيء من الأذى
بعد خروجي؟

فقالت له وهي تدنو إلى الماء تداري خجلها منه :

- لم يصبني شيء بعد خروجك غير الألم لما أصابك من أذى
في كرامتك وشعورك..

والتفتت تنظر إليه قائلة :

- ولكن أين نمت الليلة؟ لقد حسبتك انطلقت في سبيلك إلى وان!..

- وهل أستطيع أن أغادر هذه القرية بعد الآن؟ .. إنني أحبك يا

سينم.. إنني أحبك ملء قلبي كله بل ملء حياني كلها. إنني لم أنم

الليلة.. لقد جلست أساهر القرية في ظلامها الحالك لعلمي أنك فيها.
إنني أترقب مجيئك إلى هذا الماء منذ فترة طويلة.

وما إن صارحها بكلمة الحب ، ونطقت بها شفتاه في وجهها حتى
انقشع ستر قلبها في عاصفة من الانفعال سرت في مشاعرها ، وقالت
له وقد غطى عينيها الدمع :

- وأنا أيضاً أحبك يا سيامند.. وأنا أيضاً لم أتم الليلة مثلك؛ ولكن
ماذا يغنيك حبي وها أنت تجدني كيف عجزت حتى عن تقديم معونة
إنسانية إليك حينما كنت في أشد الحاجة إليها؟! لقد رأيتني إذ أخرجك
أخي من الدار كيف لم أملك أن أعتذر إليك بكلمة أو أشفق عليك بنظرة
رحمة! فخير لك يا سيامند أن لا تشغل قلبك بأمر أخشى أن يجرّ عليك
بلاء فوق البلاء الذي عانيت ، فأصبح من أجل ذلك سبباً للمزيد من آلامك
بعد أن قصدت أن أكون سبباً لتخفيفها عنك.

فأجابها سيامند وقد رفرق قلبه نشوة بحديثها الذي صارحته به :
- لا.. لن تكوني سبباً لآلامي. إن كل ألم يأتيني بسببك
سيكون في طعم الشهد الذي لم أذقه في حياتي ، بل إنني نسيت كل
آلام الدنيا التي أصابتنى يوم رأيتك فأحببتك ، بل إنني أشهد الله
صادقاً في هذا الصباح الجميل أنني قد صفحت عن كل من أساء إلي
أو أخذ شيئاً من حقي ، لقد صفحت عن شريف وساحته بكل مالي

هنيئاً له ، وعفوت عن خديجة زوجته تجاه كل ما ذقته بسببها من حرمان وآلام ، ولقد صفحت عن تلك التي بصقت على كرامتي وشعوري يوم رحت أحاول تعظيمها.. لقد عفوت عن هؤلاء كلهم بل نسيت كل ما قد ذقته على أيديهم من أجلك أنت.. أنت يا سينم.

فكيف تكونين بعد ذلك سبباً لأي عذاب لي؟

وأردف يقول لها :

- إنني على استعداد أن أتقدم اليوم إلى أخيك أطلب يدك منه ، وليشروط على ذلك ما شاء من أموال ، فإن معي من الأموال ما يكفي لشروطه على ما أعتقد...

ولكنها أجابته وقد بدا على وجهها آثار الحزن :

- لا.. لا تقل لأخي شيئاً يا سيامند ، فإنه لن يجيبك إلى ما تقول. إنه عازم على أن يزوجني من صديق له في القرية.. ولقد كانا يتحدثان عني في الدار منذ أيام.. ثم إنك إن عدت فقابلته لشيء من هذا ، فسوف يزداد ظنه سوءاً بي ، وسوف يتأكد في وهمه أن وجودك البارحة في الدار عندي كان لأمر آخر لا يتعلق بمداواتك أو استضافتك.

فقال لها منفعلًا :

- وماذا في الأمر ، أن يعلم أنني أحبك ، ما دمت أسلك بهذا الحب سبيله المشروع الشريف؟ إن القبح ليس في أن يخفق قلبان

بالحب ، ولكن القبح هو أن يحمّل هذا القلب الخفاق أوزاراً من
الإسفاف والتبذل والاتصال غير المشروع.

أما أنني أحبك ، فهذا ما لا أنكره أمام أحد ولا أتأثم في الاعتراف
به. وأما أنني أتخذ من الحب سبيلاً للعبث بالأعراض والخداع للقلوب
بعيداً عن سور الزواج ورباطه الشريف ، فذلك ما أتنزّه عنه وأكرم
فتاتي التي أحبها عن ذلك العبث بها والخداع لها.

إنني أحبك يا سينم.. ولن أكون صادقاً في هذا الادعاء إلا إذا
أحببتك جزءاً من حياتي ، واتخذتكم زمناً في عمري ، وضممتك سراً في
كياني؛ ولا يفني بضمنان هذا كله إلا عقدة النكاح وصلة الأسرة
والزواج؛ إن ذلك هو وحده التعبير الكامل للحب الصحيح والبرهان
القوي على صدق المشاعر..

وإن من حقي يا سينم أن أملك التعبير الصحيح عن حبي لك ،
والبرهان القوي على صدق مشاعري نحوك.

فقالت له مستيئة :

- ولكن ماذا نفعل إذا كان ثم من يحول دون تملكك لهذا الحق ؟
ففكر سيامند قليلاً ، ثم أخذ بيدها ، وجثا على جانب من ذلك
النعق قائلاً :

- الأمر كله بيدي ويدك يا سينم. صارحيني ، هل تحبينني وتفضلينني

على صديق أخيك هذا الذي يريد أن يتزوجك؟

فأجابته مطرقة في خجل :

- لقد صارحتك آنفاً.. أما صديق أخي فيخيل إلي أنه لن يزفني إليه إلا الموت ، ولكن أخي قاس كما رأيته البارحة ، لقد لبث طوال البارحة لا ينظر في وجهي بعد أن ذهبت.

فقال لها : إذاً فما يمنعك أن تتخلصي من أخيك هذا وأفرّ بك من قسوته وظلمه ؟ إنني على استعداد أن أنتظر هنا مع جوادي صباح غد في مثل هذا الوقت ، حتى إذا جئت مضيئاً معاً إلى وان ، وإن بيننا وبينها على الجواد أقل من يوم واحد وهنالك نستطيع أن نعقد نكاحنا ، ولقد قلت لك إن معي من المال ما يكفي لأن نعيش به عيشاً هنيئاً.

فأطرقت واجمة تفكر.. لا بحثاً عن جواب قلبها ، فقد كانت تحبه الحب الشديد في قرارة نفسها وإن منعها الحياء أن يبدو على ظاهرها مثل ما يبدو عليه هو. ولكنها أطرقت تستنجد الجرأة الكافية كيما تجيبه عن رأيه. والواقع أنها لم تجد لديها هذه الجرأة إلا حينما لمحت في نظرات سيامند ارتياباً فيما صارحته به من حبها له بسبب سكوتها وإطراقها.

فقالت له وقد عزّ عليها ما رأت منه من ريبة وحزن :

- نعم الرأي ما تقول.. سوف تجدني سبقتك إلى هذا المكان صباح غد لنأخذ طريقنا إلى حيث تريد.

فقال لها وهي تملأ وعاءها من النبع ، كيما يطمئنها من جانب
أخيها فيما إذا كانت تحسب لعلاقتها به حساباً :

- وسوف نستطيع بعد أن نصل إلى مأمنا أن نرسل إلى أخيك
بالخبر، وأن نسترضي قلبه بكل الوسائل ، ونعيش على مقربة منه بعد ذلك.
ثم ودع سيامند فتاته في انتظار شروق شمس اليوم الثاني.





هنالك.. على البعد.. بين أشجار السنديان الشاهقة كان جواد سيامند
ينطلق به مسرعاً، متجهاً إلى وان وقد أردف وراءه فتاة أحلامه سينم.
كانا يستدبران في انطلاقتهما ماضياً بحثان الخطى في الانفلات
منه، ويستقبلان غايةً يتلمّسانها أمامهما من خلال المستقبل القريب..
إنهما يهربان بقلبيهما من ظلم الإنسان، وبحثان تحت سماء الله
عن بقعة من أرضه لم تدنسها يد الظلم كي يقيما من فوقها عشهما
الآمن السعيد.. لم يكونا يحفلان بشقاء المسير لأنّ بريق السعادة يلمع
لهما في الأفق، ولا يشعران بوحشة الطريق لأنّ الحبّ قد ملأ لهما
الفضاء كلّهُ أنساً.

ولم يشعر أحدهما بالإعياء إلّا عندما انتهى بهما المضيّ إلى عين
ماءٍ صافية تنبع من جانب صخرةٍ راسيةٍ ضخمة، حيث ينحدر منها

✽ هذا الفصل الأخير كنت قد أودعته كتابي « من الفكر والقلب » تحت عنوان (الوعل).

الماء في اندفاعٍ صاحبٍ إلى أسفل الوادي.

هناك وقف كلٌّ من سيامند وسينم ، لحظات يتأملان روعة المنظر ، وينصتان إلى الصدى الهائل لخزير الماء منبعثاً من بطن الوادي وشتى جهاته. وهناك ، شعر كلٌّ منهما بالإعياء الشديد يسري في أطرافه ، فقصدا إلى أقرب شجرة ظليلة منهما وانطرحا في ظلّها يستريحان من آلام سيرهما الطويل ، وقد تركا الفرس على مقربة منهما.

وتقاذفتها في مجلسهما ذاك أحلامٌ من الأمانى والآمال في حديثٍ عطرٍ تمتع ، تناقلته عنهما النسمات الفوّاحة بالعبير ممتزجاً مع ذلك النغم الجميل المنبعث من مياه الوادي وحفيف أشجاره وتغريد بلابله. وبعد قليل ، شعر كل منهما بالدّبول يداعب أجفانه إثر ذلك التعب الطويل .. فأسلم كلٌّ منهما عينيه للنّبات.

وما هي إلّا دقائق ، حتى ذهب سيامند في غيبوبةٍ من النّوم العميق. أمّا سينم فقد كانت أحوج منه إلى ساعةٍ من الراحة والنّوم ، ولكنها لم تكد تبصر سيامند وقد غطّه الرقاد حتى شعرت بوحدتها في ذلك الوادي السحيق ، واستيقظت إلى التأمّل في شأن نفسها ، وفي شأن ما أقدمت عليه من مفارقة أخيها وأقاربها وعشيرتها ، كلٌّ ذلك في سبيل شيءٍ واحد ، هو أن تنتصر لقلبها ، ولا تُحرم من هذا الشاب الذي أشفقت عليه ثم أحبته. ترى أكانت هذه المرأة منها عملاً صحيحاً متفقاً

مع المنطق والعقل أم هي رعونة خاطئة كان عليها أن لا تُقدم عليها؟! ..
وراحت تتساءل في نفسها :

أليس من حقها أن تستجيب لرغبة قلبها فتحقق له صبوته ، ما دام
أنه لن يترتب على ذلك أيّ إضرارٍ بالآخرين ، ولا يتسبب عنه أيّ
انحرافٍ عن الفضيلة والخلق ؟

لقد أجاب الدّين عن هذا السّؤال بـ : نعم . والتفت إلى ذوي
القوامة في الأسرة فحدّثهم من تحويل (نعم) هذه إلى كلمة (لا)
وأوضح أنّه ليس لأيّ ذي قوامةٍ في البيت أن يعترض ويمانع ويعضل ، إذا
ما كان الطّرفان متراضيين بينهما بالمعروف .

وجاءت الأعراف والتّقاليد المختلفة ، وجاءت معها شهواتُ الأب
والأمّ ووجّهات نظر الأهل والحواشي - جاء كلّ ذلك ليقول في كثيرٍ
من الظّروف والأحيان : ليقبل الدّين ما يشاء ، وليحدّر ما طاب له
التّحذير ، فالكلمة الأخيرة لأمانينا وما تسكن إليه نفوسنا ! ..

وإذا كان الدّين الحقّ ، يمكن القلب من حقّه الذي لا يصبر عنه ،
ضمن خطّ من العدل الذي لا مجانفة فيه إلى أيّ انحراف أو إثم ،
وجاءت الأسرة أو العشيرة لتحرم هذا القلب من حقّه ضمن خطّ كلّ
مجانفة عن العدل ، وانحراف إلى الظلم والعضل - فأيّ شيءٍ ينعني
من أن أسير مع عدالة الدّين الصّحيح وإن استلزم ذلك التمرّد على

العرف السّخيف ، والرّغبة الفضوليّة الباطلة؟ ..

لماذا يُنكر عليّ أخي وأهلي أن أختفي من بينهم؟ .. أليس لأنهم يريدون أن أعيش معهم بسلامٍ على النّهج الذي يريدون؟ .. ولكن هل كان يتحقّق لي شيءٌ من هذا السّلام فيما بينهم؟ لا ريب أن يد الهلاك كانت تتسلل إليّ رويداً لتخطّفني من بينهم ، فخير لي أن أبادر فأنجو بنفسي قبل أن يسرع فيتخطّفني منهم يد الهلاك ، وعليهم أن يغتبطوا بأنّ هذا الذي كان ، خيرٌ مما كان سيقع .

وهكذا ظلت سينم في حديث عميق مع نفسها حول ما أقدمت عليه من مفارقة أخيها وأهلها .. إلى أن انتهت فجأةً إلى صوت دممة ينبعثُ من خلفها بين أغصان الأشجار ، فاستولت عليها الرعب والتفتت تنظر خلفها .. وسرعان ما عاد إليها الهدوء حينما رأت قطعاً من الوعول يهبط من أعلى الجبل متجهاً إلى الماء .

وجلست سينم متكئةً ، وراحت تنظر إلى أفراد هذا القطيع وتأمّلهم وقد تفرّقوا في أسفل الوادي يشربون ويمرحون . ثمّ صعدوا في الجانب الآخر يتقدّمهم فحلّ ذو قرنين عظيمين له عرير وصياح يذكر بثغاء الشياه .

فأثار ذلك الصوت في نفسها صورة قطعان الشياه إذ كان يعود بها الرّعاة إلى القرية في كل أمسية من المراعي ، وإذ كان يتعالى ثغاء شياه

أهلها مع غياب كل شمس فوق السّفح الصّغير الذي يمتد منبسّطاً خلف الدار. وتذكرت نعيمها الذي فارقتة. وأخاها وأهلها الذين تغربت عنهم في هذه المفازات التّائهة والجبال الموحشة. وطافت بمشاعرهما روح الحنين والذكرى.. ولمرأى الطّبيعة وجمالها أثر كبير في إشعال نار الذكريات. ألم تمنع مرّة في آياتها الرائعة إذ تنبسط فوق سفوح الجبال أو تتجلّى في أفاق الغروب أو تمتد فوق صفحة البحار، أو تنبعث من نسيمات الزهور وأصوات الطيور وثرثراء الشياخ وخريف الأنهار؟! .. إن في كل ذلك لحناً سحريّاً غريباً ينشر في خيالك رائحة العمر الماضي، ويبعث في النّفس صوراً من الحياة التي طواها عنك الدّهر.

آه لو كان لنا أن نغمض مشاعرنا عن تذكر الماضي كما نغمض أبصارنا عن رؤية ما لا نريد! ..

ولكنّ القدر هكذا يجري.. تتوالى الأيام وتمضي بما فيها، غير أنّ خيالها يظل ثابتاً في أفكارنا، ويذكرنا بها إن نسينا كل شيء.. تذكرنا بها خفقات النسيم، وصفحات الغدران، وشعاع الكواكب، وهداة الليل، وأمواج البحار، وغناء البلابل، ورنين الأوتار. وحتى هذه اللحظات القليلة من الهناء التي نعثر عليها بين عمر الشقاء المديد، يأبى الدهر إلا أن يكدرها بآلام من صور الماضي وقلق مما يحمله لنا المستقبل.

ولم تجد سينم بدأ - بعد أن استولت على مشاعرها هذه الأفكار
المريرة - من أن تستسلم للبكاء، وتبرد لظى قلبها بقليل من الدموع،
غير أنها نسيت أن قرينها الذي مضت عليه فترة طويلة وهو غارق في
النوم قد بدأ يستيقظ!..

وأفاق سيامند.. وكان أوّل ما انتبه إليه دموع سينم!.. فدنا إليها في دهشة
وبادرها قائلاً: ما هذا؟. ما الذي يبكيك يا سينم!؟

فارتبكت سينم من وقع المفاجأة التي داهمتها، وسكتت ولم
تحر جواباً.

ولكن سيامند عاد إلى السؤال، وأصرّ على أن يفهم حقيقة الأمر
الذي دعاها إلى البكاء، فقد ثارت في نفسه من ذلك شكوك ولا بدّ أن
يقطع جذورها بمعرفة الحقيقة.

فقالت له في لهجة مهدئة مبسطة: لا شيء، سوى أن قطيعاً من
الأوعال قد مرّ من هنا الآن. وفي مقدمتها فحل يثغو كثغاء شياها إذ
كانت يعود بها أخي من المرعى في كل مساء، فأثار ذلك في نفسي
بعض الذكريات العابرة...

فهبّ سيامند من مكانه قائماً يتحسّس مكان الخنجر والقوس في
جنبه، وسألها:

في أي اتجاه مضى هذا القطيع؟

فقلت : لقد غاب وراء هذا المنعطف ، ولكن ماذا تريد أن تصنع ؟
فأجابها وهو ينطلق بفرسه إلى حيث أشارت :
- أريد أن أذبح هذا الوعل الذي أثار شجونك وأسلمك إلى هذا
البكاء الذي لا داعي له .

فتعلقت به متوسّلة أن لا يذهب ، وقالت له :
- مالك ولصيد الوعول في هذا المكان الذي نمر فيه عابرين إلى
مقصدنا .. ثم إنَّ القطيع قد مرّ منذ فينة ، ولن تستطيع اللحاق به ، إلا
إذا بدا لك أن تتركني وحيدة في هذا المكان .

ولكن سيامند انفلت من بين يديها منطلقاً نحو المنعطف الذي
غاب وراءه القطيع وهو يقول متلفتاً نحوها :

- لا ، بل انتظريني .. انتظريني فسأعود إليك بعد دقائق فقط
برأس هذا الوعل الشرس ! ..

وقعدت سينم في مكانها ، وقد تعلّق بصرها بسيامند يسرع في
الطريق التي غابت فيه الوعول .. وفي هذه المرّة كان عليها أن تستقبل
مشاعر جديدة أخرى ، لقد أخذت تشعر بالأسى من أجل ما ظهر
لسيامند من تأثرها وبكائها ، وراحت تسائل نفسها :

- ترى هل كان جائزاً لها في شريعة الوفاء والحب أن تسكب مثل
هذه الدموع لمثل هذه الذكريات التي هي حقاً عابرة ؟ ... أليس من حق

سيامند - وقد رأى منها هذا التأثير من أجل هذا الأمر العارض - أن يرتاب في مبلغ حبّها وفي مدى إخلاصها له؟.. لا شك أنه سيوازن بين مشاعرها ومشاعر نفسه، وسينتهي إلى نتيجة يتأكد من صدقها، وهي أنها أقل حباً وشغفاً: وإلا فلماذا لا تثور مثل هذه الذكريات في نفسه هو أيضاً.

وعزمت على أن تعتذر له فور عودته، وأن تؤكد له إخلاصها ومبلغ حبّها الذي لا مزيد عليه.

ولبتت تنتظر عودته وطال بها الانتظار، وطال بعينها الشخصوس في الطريق التي غاب فيها، ولكنه لم يرجع!!.

ومضت على غيابة ساعة.. ومضى مثلها، وذوت الشمس وشارفت أن تنغمس في مغيبها ولم يرجع بعد!..

فاستبدّ بها القلق، وثار في مشاعرها ألوان من الاضطراب، ولم تعد تستطيع الصبر على البقاء في ذلك الوادي الموحش. فقامت تمشي في الطريق الذي ذهب فيه، وأخذت تقص أثره وتتبع حافر فرسه. وظلت تمشي فترة من الوقت، وهي لا تبصر أمامها ولا من حولها أحداً.

ثم انتهت بها المسير إلى مفازة جرداء ساكنة، فوقفت هناك، ولم تعد تستطيع متابعة السير، فقد داخلها الرعب الشديد من وحشة المكان وجموده!.. غير أنها أبصرت جثة وعمل ملقاة هناك، على مقربة منها، ورأت فرس سيامند كالواجم، لا يبدي حراكاً في ذلك

المكان. فعاودها الجأش ، وراحت تتمم سيرها إلى مكان الوعل .
وانتهت إليه ، فإذا هو بعينه ذاك الذي كان يتقدم القطيع . وتأملته
فإذا هو مذبوح ومصاب بسهم في أسفل بطنه ! .. فعلمت أنه قد رماه
أولاً بالسهم ، ثم أدركه فذبحه بالخنجر الذي معه .
ولكن أين بقي هو إذاً ؟

وعلق بصرها بالأرض تحملق في الدماء السائلة من مذبح الوعل ،
وأخذت تُتبعُ بصرها سير هذه الدماء إلى أن انتهت عند حافة بئر واسعة
القم هناك .. فأدركت أنه قد ذبح الوعل على طرف هذه البئر ..
ثم وقفت جامدة ذاهلة ! .. وقد بدأ الليل يقبل بظلامه إلى تلك المفازة
المروعة ، وراحت تفكر أين اختفى سيامند ! ! .

وبينما هي كذلك ، إذ انتهت إلى سمعها أنين خافت كأنه وهم من
الخيال ! .. فاستيقظت كل ذرة من مشاعرها تنصت وتسمع .. وإذا هو
أنين هادئ متلاحق يتعالى من فم البئر الذي تقف بجانبه ! .. فأمالت
برأسها عليه ، وراحت تحملق في قاعه ، لتبصر شبح سيامند ملقى على
ظهره فوق جذع شجرة طويلة قائمة وسط البئر ! ..

فخارت حينئذ قواها ، ودارت تلك المفازة الموحشة حول بصرها دورة
كرب قاتل ، وجلست على حافة البئر وقد علمت كل شيء . لقد علمت
أن سيامند وضع رأس الوعل على حافة البئر ليذبحه ، ولا بد أنه قاوم إذ

ذاك بقرنيه العظيمتين، ودفعه بهما في ظهره فهو في البئر، وتلقاه في أسفلها هذا الجذع الذي نشب في ظهره فهو باقٍ هكذا مصلوباً من فوقه!.

وعادت - وقد أطبقت عليها الحيرة وخنقها الكرب - تطلّ برأسها تصغي إلى أنينه وتصاعد أنفاسه مع هواء البئر، وتتأمل وجهه وعينه الشاخصتين إلى الأعلى.

وتبين سيامند شبحها الأسود في فوهة الضياء التي تطل عليه، فتحامل على نفسه وانتزع من صدره كلمات خافتة أرسلها إلى سمعها مع هواء البئر قائلاً:

- سينم.. إنني أمكث هنا في مقرّي الأخير الذي ساقطني إليه الأقدار، ولكن ها هي الدنيا على كل حال، لا تزال تطل عليّ، فها أنا ذا أرى فوق صفحتها وجهك الجميل.

- سيامند.. يا كبد سينم.. يا فتى الخنجر الذهبي والقوس المفضض:
ألم أقل لك لا تذهب؟ .. ألم أتوسل إليك أن لا تسلك طريق الوعول؟ ..
وأغلقت عليك فم الطريق بقلبي، ولكنك أزحتة عن سبيلك ومضيت! ..
- دعيني، فإن عتابك يحرق جرحي الأليم... دعيني يا أغلى من روعي التي لم أعد أملكها، دعيني فيأني لسعيد إذ استطعت أن أروي ظمأ حبي لك، بدم كبدي وعصارة روعي.

والتفت سينم إلى الوعل الملقى إلى جانب البئر، وتأملته قائلة:

- إِنَّ وَعَلْنَا لَذُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ مَظْلُومٍ .. مِنْ يَدْرِي ، فَرِمَا كَانَ لَهُ هُوَ الْآخِرَ قَرِينَةً تَحَنُّنٍ إِلَيْهِ ، وَتَضَنُّ بِحَيَاتِهَا مِنْ أَجْلِهِ ، وَمَنْ يَدْرِي ، فَرِمَا كَانَتْ الْمَسْكِينَةُ تَبْكِيهِ السَّاعَةَ كَبْكَائِي ، وَتَشْقَى بِالْحَيَاةِ مِثْلَ شَقَائِي !

- أَهْ.. إِنْ هَذَا الْجَذَعُ النَّاشِبُ فِي أَلْوَاكِ ظَهْرِي يَلْتَهَبُ عَلَيَّ كَالْجَمْرِ ، إِنَّهُ يَجْرَعُنِي عَذَابُ الْمَوْتِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرِيحُنِي بِالْمَوْتِ نَفْسُهُ . وَلَكِنَّهَا كَمَا تَقُولِينَ الْعَدَالَةَ.. إِنَّهَا عَدَالَةُ الْإِلَهِ تَنْتَقِمُ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالظُّلْمِ .

- إِنْ ذَلِكَ لَيْسَ ظُلْمًا مِنْكَ أَنْتَ بِمَقْدَارِ مَا هُوَ ظَلَمَ مِنْ أَخِي.. مَا كَانَ أَغْنَانَا جَمِيعًا عَنْ هَذَا الْمَصِيرِ لَوْ طَالَتْ يَدَانَا إِلَى أَسْطَ مَا مَلَكَنَا اللَّهُ إِيَّاهُ ، أَلَا وَهُوَ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ . وَلَكِنْ تِلْكَ هِيَ قِسْوَةُ الْإِنْسَانِ تَأْبِي إِلَّا أَنْ تَمْتَدَّ أَثَارُهَا إِلَى الْبَهَائِمِ وَالْوَحُوشِ !..

ثُمَّ أَطَلْتُ بِرَأْسِهَا عَلَى الْبُئْرِ بِأَكِيَّةٍ تَقُولُ :

- يَا حَبِيبِي.. عِنْدَ رَبِيعِ آمَالِي فَقَدْتُكَ ، وَأَمَامَ مَشْرِقِ سَعَادَتِي غَابَ عَنِّي وَجْهَكَ !.. كَيْفَ لِي أَنْ أَطُولَ جِرَاحَكَ الدَّامِي لِأَضْمَهُ إِلَى كَبْدِي وَأَلْثَمَهُ بِرُوحِي ؟.. أَمْ كَيْفَ لِي أَنْ أَجْثُو أَمَامَ وَجْهِكَ أَبُلِّلُهُ بِدَمْعِي ؟

- لَا تَبْكِي.. لَا تَبْكِي يَا سَمَاءَ عَيْنِي الشَّاحِصَتَيْنِ ، دَعِينِي هُنَا لِلْقَضَاءِ الَّذِي تَخَطَّفَنِي مِنْكَ ، وَاغْسِلِي أَثَارَ ذِكْرَائِي فِي نَفْسِكَ بِمَاءِ النِّسْيَانِ ، وَاجْحَثِي فِي دُنْيَا اللَّهِ الْوَاسِعَةِ كَثِيرًا مِنْ أَمْثَالِ سَيَامُنْدِ .

- لا.. لا.. لن أذهب إلى أي مكان ، ولن أجد السلوى عند أي إنسان. سأصبح بومة باكية تنعب فوق الأطلال ، وأمام مغرب الآمال ، وعند كل زهرة اعتصفتها الرياح ، أو كوخ قوَّضته الأعاصير ، أو غصن أبيضته رياح الخريف..؛ بل لن أتجاوز دنيا هذا البشر التي حللتها ، سوف أجعل منه عش سعادتي التي طالما فكرت فيها ، وسأبحث في أعماقها عن آمالي التي طالما بكيت من ورائها. سأعصب عيني بوشاحي الأسود ، ثم أهوي إلى القدر الذي سبقني إليه سيامند!.."

ولم تعد تستطيع البئر أن تنقل مزيداً من كلام سيامند الخافت إلى أذن سينم ، فقد اشتدت عليه وطأة الألم.. فقامت تحل الوشاح الذي يربط خصرها ، وودّعت دنياها بنظرة دامعة إلى النجوم التي بدأت تتلألأ في السماء ، كأنها عيون باكية ترمقها في تلك البيداء الخاشعة.

ثم قامت على طرف البئر ، وقد عصبت عينيها ، وفي اللحظة التي كانت تجمع فيها العزم على التردّي في ذلك المهوى السحيق ، أسعفها ما يسعف كل مؤمن بالله في مثل هذه الحال.

(١) هذا الحوار صاغة الأكراد أغنية ، يصدح بها المغنون في أسمارهم وحفلاتهم ، فتبعث في نفوس السامعين شجوراً كبيراً وتأثيراً عارماً. ولا أنسى اليوم تلك الليالي المقمرة ، وأنا في الثامنة أو التاسعة من عمري ، إذ كان الحنين يستبدّ بأمي إلى مسقط رأسها ومرايع أهلها ، فتشدو بصوت حزين هذه الأغنية.. أغنية الفراق.. فأتأثر لتأثرها وأبكي لبكائها.. رحم الله ليالينا الخاليات وأهلها ، وعوض البائسين عن آلامهم فرح السعادة والنعيم.

طاف حول نفسها بارق من الأمل.. وانتعش قلبها بنسيم عذب
من الرضا.. رضى العبد المملوك بقضاء سيّده المالك، بل رضا المحب
الواله بحكم محبوبه الأول.

فنزلت عن حافة ذلك المهوى، وتراجعت في ضراعة خاشعة إلى
الخلف، وقد امتزجت كآبة الحزن على وجهها بسكينة الرضا والاستسلام..
وبعد قليل.. كانت سينم تستقبل بوجهها شطر ذلك الماضي الذي ظلّت طوال
يوم كامل تحث الخطى في الانفلات منه، وانطلقت تعود أدراجها، وحيدة، في
درب لا راحم لها فيه إلا الله، ولا مؤنس لها فيه إلا الأمل بما عند الله.



ضرب الإنسان مثلاً للقسوة بوحشية الحيوان.. وإنما وحشية
الحيوان سلاح من الوقاية أمكنه الله منه ليتقي به أسباب الهلاك، فإذا
ضمن الوحش حياته وطعامه لم يضق ذرعاً بحياة الآخرين.

وضربت عبرة الزمن المثل بوحشية الإنسان.. وإنما وحشية الإنسان
فيض من أنانيته، وظلال لبغيه وحقدّه، وكلّما ضمن الإنسان مزيداً
من أسباب حياته ورفاهيته، ازدادت في نفسه عوامل البغي والظلم.
من أجل هذا كان الإنسان هو وحده الحيوان الذي لا يصلحه إلا
لجام محكم من الشريعة والدّين الحق....

مَلَّتْ

هذا الكتاب

قد يطيب لبعض من يقرأ هذه القصة أن يتصور
أنها مرثية لحالة شعب يكافح منذ عهد بعيد لنيل حقوقه والتمتع
بالحياة الكريمة التي يتمتع بها الآخرون.
إن لهم أن يتصوروا ذلك ، على أن لا ينسوا أن هذا الشعب الذي
يعنون ، وأنا واحد من أفرادِهِ ، كان ولا يزال مغرماً بتقطيع أوصال
نفسه والتألب على ذاته.
وعندما يبدأ فيكون هو أولٍ مراحِمٍ لذاته ويعكف بجِدٍ على
جمع شمل نفسه ، سيجد من حوله كثرة كُبرى تسابق إلى
اختيرامه ومد يد المعونة إليه.
على أن أحداث هذه القصة واقعة ، يسري بجدتها الرُكبان ويغتنى
بفصلها الأخير أشهر المطربين والمطربات.. وأنها لتعد بحق واحدة
من مرائع قصص الشعوب.



DAR AL FARABI

Damascus Syria

Tel: +963 11 222 6786 / P.O.Box:2382

www.daralfarabi.com